الفيصل

- متحف حصن تنومة للتراث
- المفكر الإسباني أونامونو وخطابه الشهير
- الشاي: الشراب الأكثر شعبية
- العود آلة العرب

مجلة ثقافية شهرية - المحرم - صفر ١٤٣١هـ / يناير - فبراير ٢٠١٠م

العنف الأسري

وآثاره في شخصية الآباء والأبناء





المحتويات

إدارة التحرير

رئيس التحرير: يحيى محمود بن جنيد

نائب رئيس التحرير: عبدالله يوسف الكويليت

هيئة التحرير

حسين حسن حسين

محسن بن حمد الخرابة

حوى النبي علي صالح

سيد علي الجعفري

الإخراج الفني

الوليد إبراهيم دينار

المراسلات للتحرير والإدارة

ص.ب (٣) الرياض ١١٤١١

المملكة العربية السعودية

هاتف: ٤٦٥٣٠٢٧ - ٤٦٥٢٢٥٥

ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١

الاشتراك السنوي

١٥٠ ريالاً سعوديًا للأفراد، ٢٥٠ ريالاً سعوديًا للمؤسسات، أو ما يعادلهما بالدولار الأمريكي خارج المملكة العربية السعودية.

الإعلانات

هاتف: ٤٦٥٢٢٥٥، ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١

رقم الإيداع

في مكتبة الملك فهد الوطنية

٤١/٢٤٥٠

ردمد ٠٤١١-٨٥٢٠

الناشر

دار الفيصل الثقافية



عرفت المجتمعات الإنسانية العنف منذ القدم، ويدلّ على ذلك قتل (قابيل) أخاه (هابيل). ولكن ظاهرة العنف تزايدت في العقدين الأخيرين من القرن العشرين وبداية القرن الحادي والعشرين، وأخذت طابعاً جديداً يتجاوز القدرة على ممارسة الظلم والقهر، وأصبحت تميّز طابع العلاقات الاجتماعية وأنماط التفاعل القائمة بين الأفراد والجماعات في الأسرة والمجتمع.

ضوابط النشر

- يفضل طباعة المادة المرسلة على الحاسب الآلي، وإرسال نسخة على قرص مرن إن أمكن. أو كتابتها بخط مقروء على ورق A4 جيد، مع إرفاق سيرة ذاتية، وصورة ملونة حديثة.
- لا تفضل المجلة نشر المقالات الانطباعية التي تخلو من المعلومات.
- يرجى إرفاق صور أصلية ملونة جيدة مع الاستطلاعات والموضوعات الملونة، ولا تقبل الصور المأخوذة من الصحف والمجلات.
- في حال إرسال قصة مترجمة يرجى إرفاق الأصل المترجم.
- لا تنشر المجلة الموضوعات المترجمة مباشرة من مجلات أجنبية، إلا إذا كان هناك إذن مسبق منها، وإن كان لا مانع من اتخاذها مصدرًا من مصادر الموضوع، مع توضيح مواضع الاقتباسات بشكل علمي.
- المواد التي يعتذر من عدم نشرها لا تعني بالضرورة ضعف مستواها، ولكن قد تكون هناك مواد كثيرة في الموضوع نفسه سبق نشرها، أو تنتظر النشر، ولا ترد المقالات إلى أصحابها بأي حال من الأحوال.
- يرجى إرفاق صورة غلاف الكتاب الذي يتم عرضه في باب «قراءات» مع بيانات وافية عن الكتاب المعروض تشمل: عنوانه، واسم مؤلفه، ودار النشر ومقرها، وسنة النشر، وعدد الصفحات.
- نأمل من الإخوة الكتاب الذين يراسلون المجلة من خارج المملكة العربية السعودية كتابة أسمائهم بالحرف اللاتيني.
- الموضوعات التي مضى عليها وقت طويل ولم تنشر في المجلة سيتم الرد على الكتّاب بعد إعادة تقويمها بغض النظر عن أنها قد أجيزت من قبل للنشر.
- لا تمنح مكافآت على ما ينشر في بابي «رسائلكم» و«ردود وتعقيبات».
- يرجى الاهتمام بالتوثيق، ومن أهم ما ينبغي مراعاته:
- يفضل تخريج الآيات القرآنية من القرآن الكريم مع تشكيلها، وذلك بذكر اسم السورة ووضع نقطتين بعدها ورقم الآية.
- يفضل تخريج الأحاديث الشريفة من كتب الحديث مع ذكر طبعة الكتاب.
- التثبت من النقول التي تنقل من الكتب، ولاسيما المصادر والمراجع التراثية القديمة مع ذكر طبعة الكتاب.
- تشكيل الشعر ما أمكن، خصوصًا القديم منه.
- ضبط أسماء الأعلام والشعراء والأماكن والأشياء غير المعروفة والكلمات غير المألوفة بالشكل الصحيح، والتأكد من أن أسماء الأعلام الأجانب مطابقة لما هو متداول في لغاتهم إن أمكن.

الموضوعات التي في المجلة تعبر عن آراء كتّابها، ولاتعبر بالضرورة عن رأي المجلة.

السعر الإفرادي

السعودية ١٠ ريالات. الكويت ٨٠٠ فلس. الإمارات ١٠ دراهم. قطر ١٠ ريالات. البحرين دينار واحد. عُمان ريال واحد. الأردن ٧٥٠ فلساً. اليمن ١٠٠ ريال. مصر ٤ جنيهات. السودان ١,٥ جنيه. المغرب ١٠ دراهم. تونس ٢٥٠، ١دينار. الجزائر ٨٠ دينارًا. العراق ٨٠٠ فلس. سورية ٤٥ ليرة. ليبيا ٨٠٠ درهم. موريتانيا ١٠٠ أوقية. الصومال ٢٠٠٠ شلن. جيبوتي ١٥٠ فرنكاً. لبنان ما يعادل ٤ ريالات سعودية. الباكستان ٢٠ روبية. المملكة المتحدة جنيه إسترليني واحد.

الموزعون

السعودية. الشركة الوطنية الموحدة للتوزيع. هاتف ٤٨٧١٤١٤(٠١). فاكس ٤٨٧١٤٦٠(٠١)، مصر. مؤسسة توزيع الأهرام. شارع الجلاء هاتف: ٣٣٩١٠٩٥ . فاكس ٣٣٩١٠٩٦ . ٠٠٢٠٢، سورية. المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات ص.ب ٥٢٠١ هاتف ٨٤٢٨٢١٢. فاكس ٢١٢٢٥٣٢. ١١. ٠٠٩٦٣، تونس. الشركة التونسية للصحافة. ٣ نهج المغرب. ص.ب ٧١٩. فاكس ٧١٤٠٠٣٢٣/ هاتف ٩٣٢٢٤٩. ٧١. ٠٠٢١٦، قطر. دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع. ص.ب ٣٤٨٨ هاتف ٤٦٦١٢٨٢. فاكس ٤٦٦١٨٦٥ . ٠٠٩٧٤، الأردن. شركة وكالة التوزيع الأردنية. ص.ب ٣٧٥ هاتف ٤٦٣٠١٩١. فاكس ٤٦٣٥١٥٢. ٦. ٠٠٩٦٢، البحرين. مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف ص.ب ٢٢٤ هاتف ٢٩٤٠٠٠. فاكس ٥٣١٢٨١. ٠٠٩٧٣، الإمارات العربية المتحدة. مكتبة دار الحكمة ص.ب ٢٠٠٧ هاتف ٤٩٣٥٦٦٢. فاكس ٢٦٦٩٨٣٧. ٤. ٠٠٩٧١، الكويت. شركة المجموعة الكويتية للنشر والتوزيع ص.ب ٢٩١٢٦ ت ٢٤١٧٨١٠/١١/١٢. فاكس ٢٤١٧٨٠٩. ٠٠٩٦٥، المغرب. الشركة الشريفية لتوزيع الصحف فاكس: ٠٢٢٤٠٤٠٣١/٣٢. ٠٠٢١٢ ت: ٠٢٢٤٠٠٢٢٣، الجمهورية اليمنية. القائد للنشر والتوزيع هاتف: ٢٠١٩٠١/٢. ٢. ٠٠٩٦٧ فاكس: ٢٠١٩٠٩/٧



• ناقوس الخطر

لقد أعجبني كثيراً غلاف العدد الأخير من مجلة الفيصل؛ إذ حملت عين ذلك الطفل البائس إدانةً للعالم، الذي يكتفي بمشاهدة مآسي الفقر والمجاعة من دون أيّ اكتراث بحلها، بينما تتفاقم تلك المعاناة بفعل أسلحة الدمار التي يصنعها الأغنياء؛ ليقتل الفقراء بعضهم بعضاً.

إن تفاقم الفقر حقيقة ماثلة ومهددة لاستقرار العالم، والأرقام التي ذُكرت عن بعض الدول يمكن تعميمها على دول أخرى بمنتهى البساطة؛ لأن الأوضاع متشابهة، والظروف الاقتصادية المنهارة سمة مشتركة بين كثير منها.

إن تفاقم الفقر ناقوس خطر يجب أن يسمعه العالم؛ حتى لا يصحو على كارثة أكبر. وقد نجحت (الفيصل) في إبراز الموضوع من خلال إخراج متميّز، وعناوين دالة. وأحمد الله أنني حصلت على هذا العدد عن طريق أحد القادمين من الرياض بعد طول إلحاح.

تقبلوا تحياتي

عبدالقادر عبدالرحيم

الخرطوم – السودان

التحرير:

نشكر لك اهتمامك بالتعقيب على ما يُنشر. وهذا الموضوع الذي اخترته من ضمن موضوعات العدد تهتم به المجلة. ونحاول أن نضع بين يدي القارئ الكريم معلومات وافية، مع تحليل موضوعي من بعض المختصين، ولا شك أن تعليق القراء أمثالك يغني الموضوع. ويعطيه أبعاداً أعمق.

• الفيصل إلكترونياً

سعدتُ بقراءة إعلان عن تحوّل الفيصل إلى إصدار إلكتروني، وهذا يدلّ على أن المجلة مواكبة للجديد، وها هي ذي تعد القرّاء بالتحول إلى إصدار إلكتروني؛ مما يعني أن المجلة ستكون في متناول القراء متجاوزةً مشكلة العوائق والرقابة وغيرهما.

نحن في انتظار الفيصل إلكترونياً.

وتقبلوا وافر تحياتي.

جمال فوزي

القاهرة – مصر

التحرير:

نشكر لك متابعتك الرقيقة، ونعدك بانطلاقة قريبة للفيصل إلكترونياً، ولكن مثل هذا العمل – كما تعلم – يحتاج إلى مزيد من الوقت حتى يأتي شاملاً ومتكاملاً.

• مسؤولية كبيرة

أثارت (الفيصل) قضية اللغة العربية لغير الناطقين بها، خصوصاً في إفريقية. ومثل هذا المشروع يحتاج إلى الدعم المادي والعلمي حتى تأتي نتائجه ملبيةً للأهداف المرجوة من إثارته.

وأعتقد أن نشر اللغة العربية هي مسؤولية كبيرة تحتاج إلى تضافر جهود الدول والمؤسسات المعنية بهذا الاتجاه.

فهد الحمود

الرياض – السعودية

التحرير:

نشكر لك تأكيد أهمية الاهتمام بنشر اللغة العربية؛ لأن اللغة



هي وعاء الثقافة، ومن أراد نشر ثقافته فعليه أن ينشر لغته، وإلا فإن جهوده ستذهب هباءً.

• حضارة عظيمة

قرأتُ في عدد مجلة الفيصل رقم (٢٩٥-٢٩٦) استطلاعاً جميلاً عن مدينة كوانجو الصينية للكاتب معاوية عبدالرحيم كنه، تناول فيه الوجود العربي في جنوب الصين، وتحدّث عن الحي الإسلامي في شارع قوانغتا في مدينة كوانجو، الذي يضم مزيجاً من خيوط عربية متباينة من الجزيرة العربية والشام وغيرهما، وهو الشارع كان يشهد منذ أكثر من خمسة عشر قرناً أكبر تجمّع للعرب هناك، حتى إن نفوذ العرب في كوانجو بلغ إلى الحدّ الذي قبل فيه أحد أباطرة الصين بأن يخضع العرب القاطنون في المدينة لأحكام الشريعة الإسلامية وقوانينها. وهو موضوع يرصد لنا الماضي التليد لأمتنا العربية الإسلامية، وكيف كان التجار العرب وسيلةً لنشر الدين الإسلامي في كل ربوع الأرض. ونطلب من (الفيصل) أن تكثر من مثل هذه الموضوعات التي تكشف لنا جوانب من حضارتنا الإسلامية العظيمة.

فوزي المحمد

دير الزور - سورية

التحرير:

نشكر لك اهتمامك، ونَعِدُك بأن ننشر بعض الموضوعات التي تصبّ في هذا الجانب الذي يبرز دور الحضارة الإسلامية في رقيّ المجتمعات وتطوّرها، وهو مبدأ عمل على تأسيسه ودعمه الملك فيصل بن عبدالعزيز صاحب هذا المنبر الثقافي ورائد حركة التضامن الإسلامي. وبانتظار مشاركاتك التي تثري صفحات (الفيصل).

• معلومة مرحة

طالعتنا مجلّتنا الغرّاء (الفيصل) في عددها الأخير بموضوع شائق عن غرائب العقوبات في الحضارات الإنسانية، وطاف بنا كاتب الموضوع بين حضارات اليهود واليونان والرومان والجرمان والفرس وبابل، فعرض مجموعةً من القوانين الطريفة والعجيبة. ومما تحدّث عنه محكمة (البريتانيون) التي أنشأها اليونانيون في أثينا، وكان من قوانينها أنه إذا سقطت صخرة، أو قطعة حديد، أو خشبة على شخص فقتلته، وجب أن تُقام على ذلك الشيء الدعوى أمام المحكمة.

نأمل من مجلتنا العزيزة أن تُتحفنا بمثل هذه الموضوعات الجيدة ذات الطبيعة المرحة؛ فهي تقدم لنا معلومةً مفيدةً في ثوب مرح.

محمود فوزي عبدالله

الفيوم - مصر

التحرير:

نشكر لك متابعتك لما يُنشر في (الفيصل)، ونؤكّد أننا نحرص على ذلك في كل عدد، فنجعل خاتمة المطاف موضوعاً قصيراً مركّزاً يميل إلى طرح الموضوعات الجديدة؛ فقد نشرنا في عدد سابق مثلاً موضوعاً عن (العميان في الحضارة الإسلامية). ونحن نرحّب بمشاركاتك في هذا الإطار بكلّ ما هو جديد وطريف؛ لأننا نحرص دائماً على تحقيق رغبات القرّاء.



متحف حصن تنومة للتراث

علي عبد الله مرزوق

الرياض - السعودية

وأنت تزور مركز تنومة يستوقفك حصن تنومة للتراث، هذا الحصن التراثي الذي يحتوي بين جنباته كثيراً من التحف والأدوات التراثية التقليدية. والأجمل أنك سوف تعيش الماضي بكل تجلّياته. ابتداءً بالترحيب وحسن الاستقبال في بيت الشعر، ومروراً بتناول الأكلات الشعبية، وزيارة الحصن والمرافق التابعة له، وانتهاءً بتسجيل انطباعاتك في سجلّ الزوّار.

ترحاب وضيافة

التقيتُ بدايةً أحد أبناء صاحب المتحف الذي بادرني بعبارة (ارحب)، ثم دعاني إلى الضيافة في بيت الشعر الذي أعدّ لاستقبال ضيوف المتحف، والتقيت والده وصاحب المتحف فايز بن عبد الله الشهري المشهور بـ(دحدوح). وبعد استراحة قصيرة أحضر إليَّ صُرَّة تسمى (قطف)، وبها ما يسمى بـ(حواجة) القهوة العربية، كما قرب مني (الهاوند)، وطلب مني أن أضع حواجة قهوتي. ولأن هذا الأمر لم يكن في الحسبان استعنت بأحد الضيوف لمساعدتي، ثم شربت القهوة التي عملها بيده. وبعد تناول الإفطار، الذي كان (عريكة) مكونة من خبز البر والسمن والعسل، أخذني ابنه عبد العزيز في جولة ماتعة داخل أروقة المتحف. وقد كان مقرراً للزيارة أن تستغرق ٣ ساعات، لكنها امتدت أكثر من عشر ساعات، تناولنا خلالها وجبتي الغداء والعشاء.

تشجيع الأمير والوزير

بدأت فكرة المتحف بعد عودة دحدوح من جمهورية اليمن عندما كان يعمل في السفارة السعودية هناك؛ إذ لاحظ أن كل ما هو قديم يُرمى ولا يُنتفع به؛ مما أثَّر في نفسه. ومع بداية سنة ١٣٩٧هـ بدأ يقتني بعض القطع التراثية من الأهل والأصدقاء في بادئ الأمر، وتغيّر الحال مع مطلع سنة ١٤٠٢هـ عندما زاره معالي المهندس عبد العزيز الزامل وزير الصناعة آنذاك، وكان المتحف في غرفة صغيرة لا تزيد مساحتها على ٢٠ متراً مربعاً، وبتشجيع من الوزير أقام دحدوح المتحف على شكل حصن دفاعي مكوّن من ٣ أدوار على حسابه الخاص، يحوي بين جنباته كثيراً من القطع التراثية المتنوعة.

وفي سنة ١٤٠٥هـ زار المتحف صاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل أمير منطقة عسير (سابقاً)، وعدّ دحدوح هذه الزيارة افتتاحاً رسمياً للحصن، ودعماً كبيراً لمواصلة الجهد والعطاء.



أدوات خشبية وجلدية وخوصية





مقتنيات المتحف

يضم المتحف بأدواره الثلاثة كثيراً من القطع المتنوعة؛ إذ يحتوي الدور الأرضي على مقتنيات الزراعة والإنارة، ومجموعة من المحاقين والآنية الخشبية والحجرية، والصحون الخشبية، والمصنوعات الجلدية والخوصية، وكل ما يخصّ المطبخ. بينما يشتمل الدور الثاني على مجموعة من الكتابات الصخرية، إضافةً إلى الأسلحة التقليدية بأنواعها، والملابس الرجالية التقليدية. أما الدور الثالث، فخصّصه للقطع التراثية التقليدية التي تخصّ زينة المرأة العسيرية من حُليّ وملابس وغيرهما.

ومن مقتنيات الحصن الثمينة سيف مرصّع بالفضة من صفاته أنه ينثني من ليونة نصله، فتستطيع أن تقوم بثني رأسه على نصابه، ويرجع كما هو دون أن يتأثر بهذا الانثناء. مكتوب عليه (إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ)، وقد قدّمه إهداءً إلى سمو الأمير خالد الفيصل بعد زيارته متحفه عندما كان أميراً لمنطقة

بتشجيع من المهندس عبد العزيز الزامل – وزير الصناعة سابقاً – انتقل المتحف من غرفة صغيرة إلى حصن مكوّن من ٣ أدوار



عسير، وقبل سموه هدية دحدوح مع أنه كان يتمنى أن يبقى في المتحف ليشاهده الجميع.

وحول كيفية الحصول على هذا الكم الكبير من المقتنيات التراثية أجاب بأنه حصل على أغلبها من أبناء قريته؛ تشجيعاً منهم لهذا الجهد الذي يقوم به. كما أشاد دحدوح كذلك بدور الأستاذ قاسم شماخي – مدير تعليم البنات بمنطقة عسير (سابقاً) – الذي زار المتحف، ثم تفضّل مشكوراً وأهداه مجموعة من المقتنيات التراثية التي تمثّل تراث منطقة جازان.

أول قطعة وآخر قطعة

وأوضح دحدوح أنه لا يزال يقوم باقتناء القطع الأثرية، ذاكراً أن أولى القطع التي قام باقتنائها كانت بندق فتيل تقدّر بنحو ١٥ ألف ريال، أهداها إلى معالي المهندس عبد العزيز الزامل – وزير الصناعة سابقاً – للدعم الكبير الذي وجده منه، وكانت أغلى القطع التراثية لديه في ذلك الوقت. أما آخر قطعة اقتناها، فكانت بندق فتيل بمواصفات نادرة، اقتناها قبل أشهر بنحو ٣٠٠ ريال من رجل كان قد اشتراها بمبلغ ٢٠٠ ريال. ويقول دحدوح: إنه لو عُرض عليه مبلغ يتجاوز الخمسة آلاف ريال لما باعها؛ فهو يحرص على الاقتناء، ولا يحبّذ البيع مطلقاً؛ لأنه يعتقد أن القطع التراثية لا تقدَّر بثمن. ثم استدرك بقوله: إلا إذا كان هناك قطع مكرّرة، ورغب الزملاء أصحاب المتاحف الأخرى اقتناءها، فإنني لا أمانع بشرط أن يكون صاحب متحف، ولن يفرط فيها، وستكون في متحفه ملكاً للجميع.

طموح لا تحده حدود

وعن المشروعات المستقبلية ذكر أنه يقوم الآن بوضع اللمسات النهائية للجزء الثاني من المتحف، الذي يقع على الشارع الرئيس.



صحون ومصنوعات جلدية





المحرر مع صاحب المتحف

وجمع فيه القطع التراثية التقليدية والحديثة على حدّ سواء؛ بهدف ربط الماضي بالحاضر؛ ليعكس بذلك التطور الذي يحدث لكل قطعة تراثية، وهذا بدوره يقدم درساً جميلاً للزائر، وشرحاً وافياً عن كل قطعة تراثية، ومراحل تطورها، وهذا الأمر جعل كثيراً من زوار المتحف يشيدون بهذه التجربة الجديدة، مؤكدين أنها من طرائق العرض المتقدمة.



مدخل المتحف

تطلّع إلى دعم هيئة السياحة والآثار

وعن طرائق الحفظ، وهل يتبع في ذلك المنهج العلمي المعروف؟ أجاب بأنه لا يتبع طرائق علمية معينة، لكنها تظلّ اجتهادات شخصية يقوم بها، وقد لا تفي بالغرض؛ مما جعله يفقد كثيراً من القطع التراثية. ولكي يقوم بهذا يجب أن تكون لكل مجموعة جوّها الخاص من تهوية وإنارة و...، وهذا يتطلب مساحة كبيرة أولاً حتى لا تتداخل القطع بعضها مع بعض، كما أنها بحاجة إلى متخصصين يقومون بهذه العملية، وهذا ما نفتقده نحن أصحاب المتاحف الخاصة، فنحن لا نملك الأدوات ولا الإمكانات التي تجعلنا نقوم بمثل هذا العمل المتخصّص.

أما أمنياته المستقبلية، فعلى الرغم من كثرتها إلا أنه يأمل فقط من الهيئة العامة للسياحة والآثار توفير حارس لمتحفه ولغيره من المتاحف الخاصة؛ لما في هذه المتاحف من مقتنيات ثمينة. كما أنه بحاجة إلى فريق عمل متخصّص يقوم بالتوثيق والتصوير والتعريف بكل قطعة في بطاقتها الخاصة بصورة علمية أكاديمية منظمة، ولذا يرى أن هذا الجهد لا يمكن أن تقوم به إلا الهيئة العامة للسياحة والآثار، ليس في متحفه فحسب، وإنما في سائر المتاحف المنتشرة في مملكتنا الحبيبة عن طريق فرق عمل مدربة متخصصة تقوم بالتنسيق مع أصحاب المتاحف لأرشفتها ورعايتها والعمل على تطويرها، ومن ثم إخراج هذا العمل بالصورة المرضية. والذي في ظنّي سوف يفيد الباحثين والمهتمين بالتراث. وأضاف أنه مستعد

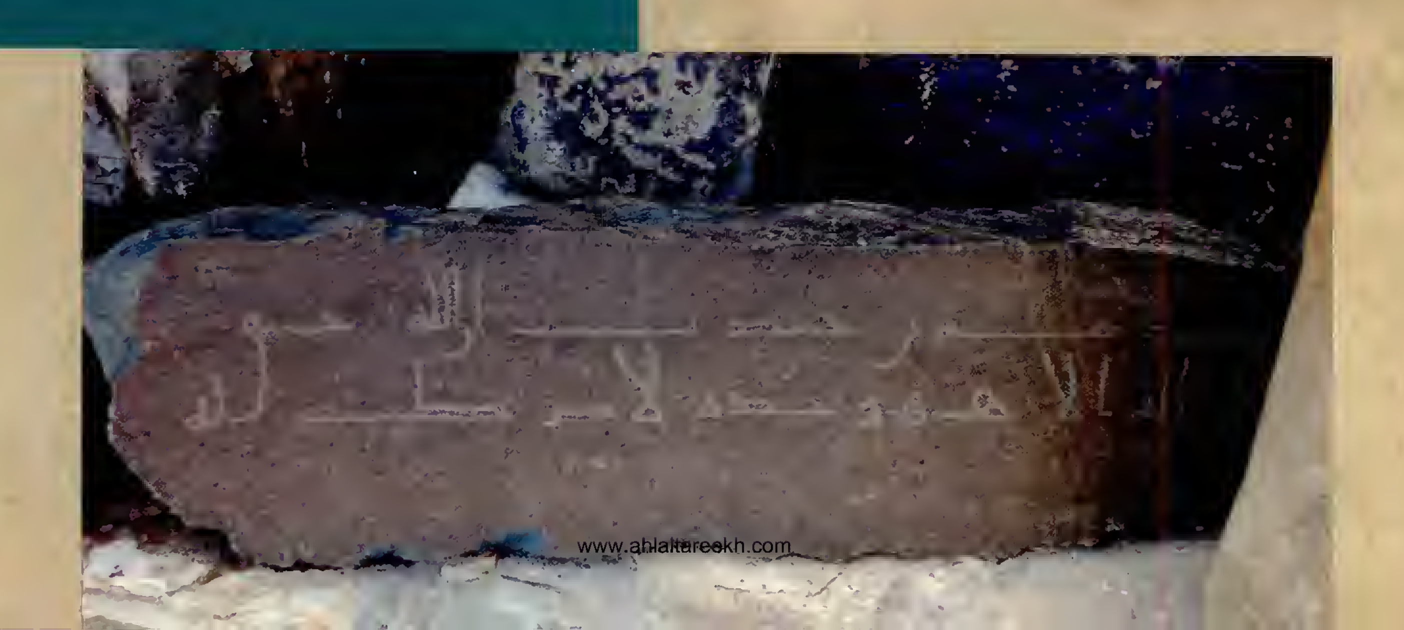
لإهداء هذا الجهد إلى الهيئة العليا للسياحة والآثار تتولاه وتقوم برعايته وتنميته من دون مقابل، ويقوم هو بدور الإشراف والمتابعة.

وعن التنسيق للوفود وزوار المتحف أجاب بأنه يرحب بكل الباحثين والمهتمين بالتراث من دون رسوم أو مقابل مادي. أما الوفود الرسمية، فإن لها استعدادات خاصة؛ إذ يقوم بدايةً بدعوة مدير المركز، والمشايخ، والمسؤولين في تنومة لاستقبال الوفد. بالإضافة إلى الأبناء الذين يقومون بالإعداد والتجهيز لمراسم الزيارة، ابتداءً من الضيافة، ومروراً ببرنامج الزيارة، وانتهاءً بالتوديع. ولا بد من مشاركة الفرق الشعبية لأداء الرقصات الشعبية التي تصاحبها أصوات طلقات الفتيل احتفاءً بالوفد.

بقي أن نذكر أن (دحدوح) شارك في كثير من الفعاليات داخل منطقة عسير وخارجها، نذكر منها: مشاركاته في الجنادرية التي امتدت أكثر من ١٨ عاماً، وفي الجمعية النسائية بمحافظة جدة، إلى جانب مشاركاته المستمرة في دعم السياحة في منطقة عسير. وتم تكريمه من قبل وزارة التربية والتعليم، وجمعية الكشافة السعودية، وإمارة منطقة عسير، وحصل على كثير من الجوائز وشهادات التقدير، أهمها جائزة أبها للخدمة الوطنية ثلاث مرات.



أولى القطع التي قام باقتنائها بندق فتيل أهداها إلى المهندس عبد العزيز الزامل – وزير الصناعة سابقاً – للدعم الكبير الذي وجده منه





زار المتحف صاحب السمو الملكي
الأمير خالد الفيصل وعدّ دحدوح هذه
الزيارة افتتاحاً رسمياً للحصن، ودعماً
كبيراً لمواصلة الجهد والعطاء



المفكر الإسباني ميغال دو أونامونو

وخطابه الشهير

محمد السبيطلي

الرياض - السعودية

استوقفني في تاريخ الفلسفة المعاصرة موقف عَلَمين من أعلامها الأوربيين، هما: الألماني مارتن هايدجر (١٨٨٩- ١٩٧٦م)، والإسباني ميغال دو أونامونو (١٨٦٤- ١٩٣٦م)؛ فكلاهما تعايش مدةً ما مع الفاشية الصاعدة في مطلع الثلاثينيات من القرن العشرين. وليس هذا فقط هو وجه الشبه بينهما؛ فثمة وجه شبه آخر بينهما؛ إذ عمل كل منهما رئيساً لجامعة عريقة في ظل الفاشية، فمارتن هايدجر كان رئيساً لجامعة فريبورغ لمدة عام في أثناء حكم هتلر، واستقال من عمله هذا عام ١٩٣٤م؛ لتعارض النازية مع مُثُله الفلسفية. إلا أن ذلك لم يمنع بقاءه عضواً في الحزب النازي إلى عام ١٩٤٥م. ولعل هذا ما جعله يُمنع من التدريس بعد نهاية الحرب حتى عاد إلى مُدرَّجات الجامعة نحو عام ١٩٥١م.

وعلى عكس الفيلسوف الإسباني ميغال دو أونامونو، فقد ظلّ انخراط هايدجر في الحزب النازي وتحمّله مسؤولية إدارية في ظلّ الدولة النازية وصمة عار في تاريخه. وإن كان الأمر ليس بهذه البساطة والسهولة؛ إذ لا بد أن يكون الفيلسوف هايدجر قد فكّر في ذلك ملياً، ووجد لنفسه المخارج الفكرية المناسبة عبر توليفة لا يعجز الفلاسفة والمفكّرون عن تدبيرها. ومهما يكن من أمر فهايدجر لم يكن في يوم ما مناضلاً نازياً أو ناشطاً سياسياً، كما أن أفكاره تتنافى والأيديولوجية النازية.

لكن ميغال دو أونامونو - رئيس جامعة سلمنقة (Salamanca) - تميّز بتاريخه السياسي الواضح في مقاومة النزعات السلطوية والفاشية في تاريخ إسبانيا منذ نهاية القرن التاسع عشر حتى وفاته عام ١٩٣٦م. ويبدو أنه ارتأى في يوم ما إمكانية التعايش مع الجنرال فرانكو بصورة أو بأخرى، إلا أن خطابه الشهير في مدرَّج جامعة سلمنقة بمناسبة إحياء (عيد العِرق) يوم ١٢ أكتوبر عام ١٩٣٦م خلّد ذكراه بوصفه مثقفاً شريفاً وجريئاً لا يقبل المساومة على أفكاره.

يبقى أن أونامونو يختلف عن هايدجر في مسألة أخرى، هي في حقيقتها قاعدة التشابه بينهما، وهي الفلسفة. فهذا الحقل المعرفي جمع بينهما بوصفه تخصّصاً أوّلياً، وقاعدة انطلاق أكاديمي، لكنه فرّق بينهما فيما بعد عندما اختار هايدجر التميّز عبر الإنتاج الفلسفي، في حين عمد أونامونو إلى التميّز من الفلاسفة بالنوع الأدبي، فاختار الشعر والرواية حاملين لأفكاره، إلى جانب رفضه هيمنة الأنظمة الفكرية الصارمة وجفاف المنطق العقلاني؛ لذلك كان يقول: «أنا لم أكن سوى شاعر»، واتّجه نحو ليبرالية فكرية وفلسفية جعلته عبر التصوف يقف بين العقل الديني المتشكّك والعقل الفلسفي المؤمن، وهو موقف صعب واستحالة فلسفية جعلها ميغال دو أونامونو ممكنة الحدوث؛ فقد عبّر في يومياته الخاصة (Diario intimo) عن هواجس وجودية متعلقة بالموت والقلق والإيمان.

ومع أننا أمام مسارات فكرية مختلفة، وتنوّع مدرسي واضح، إلا أننا أيضاً أمام بلدين لكل منهما علاقة تاريخية مختلفة مع الفلسفة؛ فلم تكن لإسبانيا تجربة ثرية مع الفلسفة مثلما هو الأمر بالنسبة إلى فرنسا أو إنجلترا أو ألمانيا. فقد كانت إسبانيا في الحقيقة تعيش معزولةً عما يهزّ أوربا من تيارات ومدارس فكرية وتوجهات عالمية؛ إذ كانت تمرّ بمرحلة انزواء، ليس فقط عن أوربا بل عن العالم. وكانت

تبدو إمبراطورية تعبة، فقدت مجدها وتأثيرها في الحياة الدولية منذ زمن. وعلى هذه الخلفية اكتشفت إسبانيا عللها الداخلية. فبحثت عن جوهرها وعامل قوتها وانتشارها في نهاية القرون الوسطى، ووجدت أن ذلك يكمن في الكاثوليكية الإسبانية.

ورد في مقدمة كتاب أونامونو (ضباب) هذا القول المأثور عنه: «أعلم أن شعبنا قد بدأ محارباً ومُتديِّناً ليعود فيما بعد فيصبح ماجناً وميتافيزيقياً، وقد يرافق عبادة المرأة عبادة التقعر في الآراء».

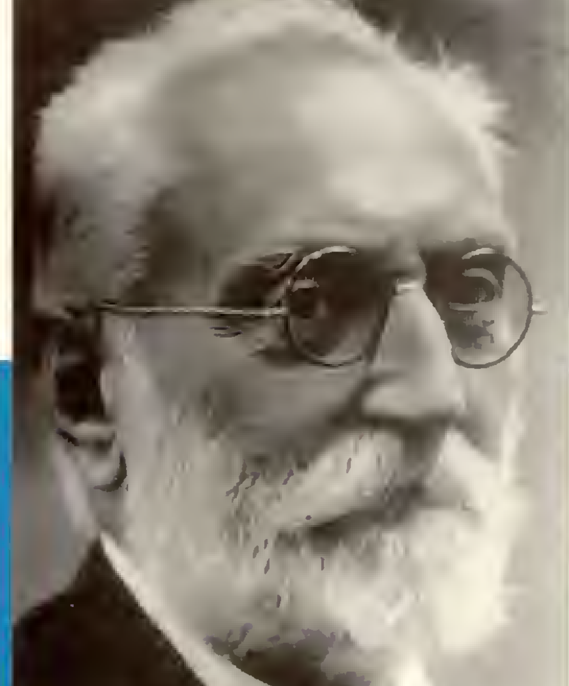
لقد ساد الفكر الكنسي إجابةً عن أسئلة طُرحت في زمن أزمة وانحسار حضاري، وظهر استبداد العسكر في ظلّ حكم ملكي ضعيف كوجه سياسي للأزمة العامة. وكان على المفكرين معالجة مثل هذه الأوضاع، كانت سيادة السلطوية المستندة إلى الفكر الكنسي المنغلق متلازمتين للمجتمعات الأوربية الحديثة المتأزمة. إنها أزمة هوية. هنا، وفي مثل هذه الظروف في إسبانيا، برز أونامونو كأحد أهم شخصيتين إسبانيتين في القرن العشرين، إلى جانب أورتيغا غاسيه Ortega y Gasset.

قد نعود في مقالة أخرى إلى الحديث عن هايدجر وعلاقته بالنازية، إلا أن هذا الموضوع الذي بين أيدينا خصّصناه للمفكر الإسباني ميغال دو أونامونو. في هذا السياق، واستجابةً لهذه التحديات، جاءت أهم كتابات أونامونو الفكرية منها والأدبية (انظر مؤلفاته أدناه). ولا يمكن الإحاطة بحيثيات خطابه الشهير الذي ألقاه في المكان والزمان والذي سبقت الإشارة إليه، والذي نورد نصّه في نهاية هذه المقالة، إلا بتقديم موجز عن سيرته، والظروف التي أحاطت بخطابه الذي ألقاه أمام جمع عُنصري مُعادٍ وعنيد وشرس كان يُطالب بقتله علانيةً.

الفيلسوف أونامولو

وُلد أونامونو في مدينة بيلباو الباسكية عام ١٨٦٤م في ظل الحرب الكارلية الثانية. وتلقّى دراسته الجامعية في مدريد (فلسفة وآداب)، ثم عمل في جامعة سلمنقة - أشهر جامعات إسبانيا وأقدمها (تأسّست في القرن ١٣م) - مدرساً للغة الإغريقية من عام ١٨٩١م إلى عام ١٩٠١م. قبل أن يُعيَّن في هذه السنة رئيساً لهذه الجامعة العظيمة، وكان قد حصل على شهادة الدكتوراه في الفلسفة. ظهرت كتابات أونامونو الأولى عام ١٩٠١م. وعُرف بتوجُّهه القومي والوطني، وعاش في أثناء مرضه عام ١٨٩٧م أزمةً وجوديةً أدّت به إلى التصوّف، فتأثر بابن عربي وعُدّ من أصحاب (الأرواح النارية). انخرط في الحزب

الفيلسوف أونامونو



الجنرال فرانكو



ستنتصرون لأنكم تمتلكون كتلة هائلة من القوّة الغاشمة، لكن لن تتمكّنوا من الإقناع؛ لأنه يعني امتلاك القدرة على تحقيقه

الاشتراكي منذ عام ١٨٩٤م، وأدّت مواقفه المعادية للحكومة إلى استقالته من منصبه كرئيس لجامعة سلمنقة في عام ١٩١٤م، لكنه ظلّ يعمل في هذه الجامعة مدرِّساً. لكنّ عداءه للنظام القائم أدّى به عام ١٩٢٤م إلى منفاه في جزر الكناري. لكنه تمكن من الفرار إلى فرنسا حيث استقرّ بها إلى عام ١٩٣٠م. ولما عاد إلى إسبانيا أعيد إلى منصبه في رئاسة الجامعة.

يعدّ أونامونو من أبرز مفكري إسبانيا في القرن العشرين، ومن أهم الكتّاب الذين سعوا في ظروف انهيار وطني إلى إعادة بعث الروح الوطنية والقومية لإسبانيا. وقد ظلّت إسبانيا معزولةً عن أوربا، وقليلة التأثر بما يحدث فيها ويشقّها من تيارات فكرية؛ مما جعله يبدو أكثر انفتاحاً، فدعا إلى مقاومة هيمنة الكنيسة على الحياة الفكرية والعامة في إسبانيا. كما أدّى ضعف الملكية في إسبانيا إلى ظهور دكتاتوريات عسكرية تتعايش معها وتحكم في ظلّها. وفي حين كان أونامونو يميل إلى الليبرالية اصطدم بالتسلّط العسكري للجنرالات ابتداءً من عام ١٩٢٤م في ظلّ حكم الجنرال بريمو دي ريفيرا. وساند الفيلسوف أونامونو الانقلاب الذي قاده فرانكو ضد الجمهورية عام ١٩٣٦م من منطلقات قومية وليبرالية، إلا أن وحشية المعارك، وغموض برنامج العسكر السياسي، والثورة الشعبية التي واجهت الانقلابيين القوميين، جعلت أونامونو يتراجع عن دعمه الانقلابيين، بل دان سلطة الجنرال فرانكو وممارساته مثلما سيرد في خطابه الشهير.

الانتصار لا يعني الإقناع مع أن الأمر يتمثّل فيه أولاً، كما أن الكراهية التي لا تترك مجالاً للرحمة تعجز عن تحقيقه

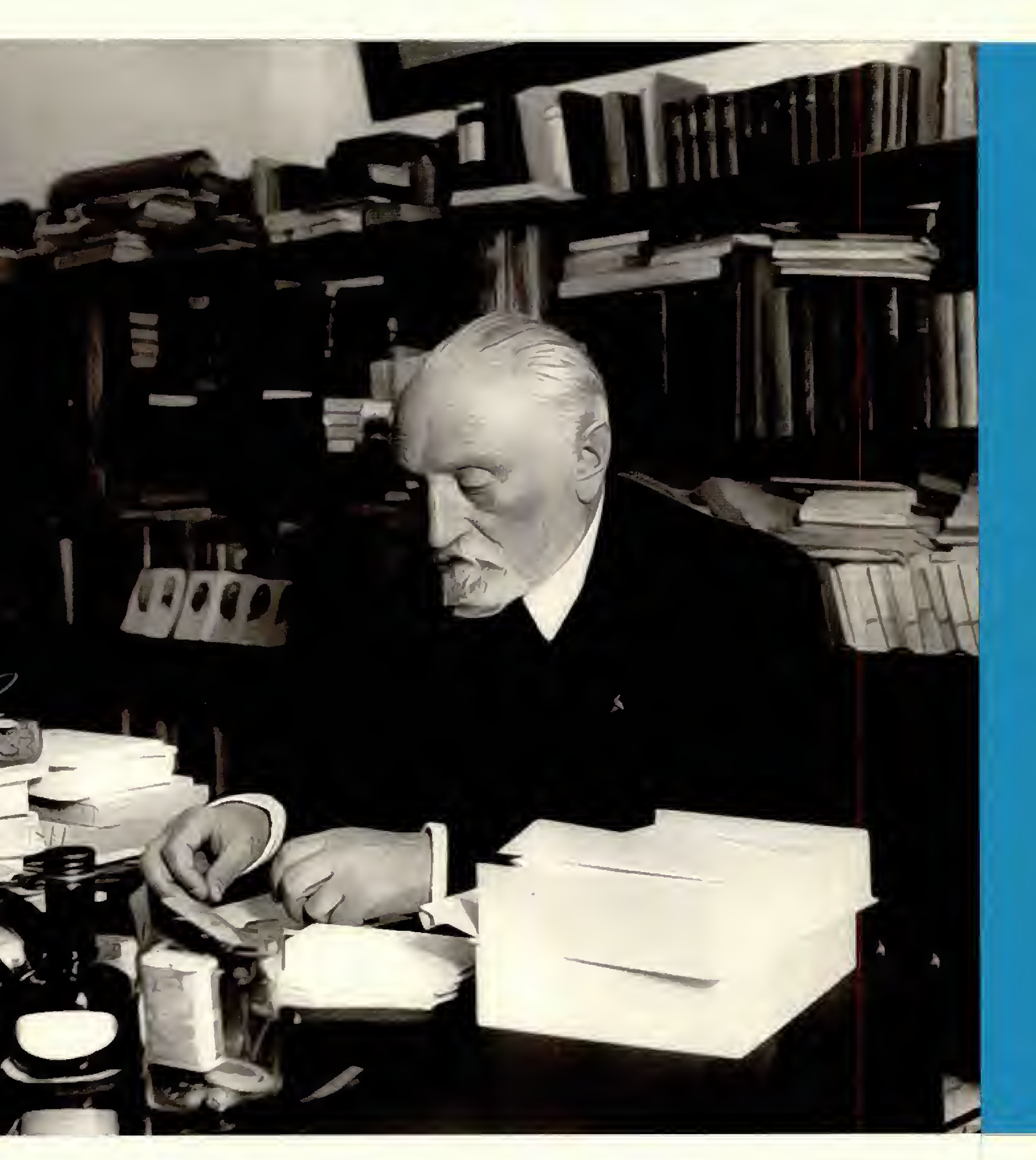
قوة الفكر ومنطق القوّة

ألقى أونامونو خطابه الحاسم في حفل تمّ على بعد أمتار من مقرّ القيادة الفاشية حيث مكتب الجنرال فرانكو، الملقب بـ (الكوديلو)، في مبنى القصر الكنسي للمدينة بدعوة من الأسقف نفسه.

وكان الانقلاب في بداياته، ويسود البلاد جوّ مشحون بالحقد والكراهية تجاه من عُدُّوا غير إسبان؛ مثل: الباسك، والكتالون. لذلك كانت التيارات اليمينية المتحالفة مع الكنيسة تتبنى خطاباً تعبوياً وعنصرياً. من هنا جاء الاحتفال بيوم العِرق في جامعة سلمنقة. ولعلّ الذين نظموا هذه المناسبة تجاهلوا أن رئيس الجامعة من أصول باسكية، وأسقف المدينة من أصول كتالونية.

وكان يحضر الحفل أحد أهم رموز الحركة الانقلابية، وأكثر المتحمسين للقومية الإسبانية بمفهومها الشوفيني العنصري المتطرّف، وهو من بين الذين سيلقون خطبهم في هذه المناسبة، وجاء بكامل حراسته وأتباعه، وهو الجنرال ميلان أستري. لذلك كان أحد الحاضرين يقوم في أثناء الحفل ويصرخ بأعلى صوته: (يحيا الموت)، وهو النداء الذي تستخدمه كتائب الجنرال ميلان أستري، فيرد الجنرال: (إسبانيا)، ويجيبه أتباعه بصوت واحد منتظم: (واحدة)، فيعيد ميلان أستري: (إسبانيا)، ويجيبه أتباعه: (عظيمة)، وعندما يقول الجنرال ميلان أستري للمرة الثالثة: (إسبانيا)، يجيبه حُرّاسه: (حُرّة). وفي هذا الجوّ المشحون، حيث سيستعرض الجنرال قدراته الخطابية في قاعة امتلأت بالميليشيات والعسكر والأتباع، ستقع المواجهة بينه وبين رئيس الجامعة الفيلسوف ميغال دو أونامونو، الذي جاء إلى القاعة يحمل معه هيبته كمرجعية فكرية ونضالية معروفة، غير آبه بما ستؤول إليه المواجهة، متشبّثاً بحقه في قول ما يراه حقيقةً لا تقبل التنازلات والمساومات، إنها المواجهة بين قوة الفكر ومنطق القوّة. ووردت في خطاب ميغال دو أونامونو أسماء ثلاث شخصيات، هي: الجنرال ميلان أستري، وأسقف مدينة سلمنقة، وسيرفانتس.

فميغال دو سيرفانتس (١٥٤٧- ١٦١٦م) أديب إسباني شهير، ومؤلف رواية (دونكشوت)، وقد أصيب في معركة ليبناتو الشهيرة ضد الأتراك عام ١٥٧١م. أما الجنرال ميلان أستري Jose Millan-Astray (١٨٧٩-١٩٥٤م)، فهو أحد جنرالات المعسكر الفاشي الذي كان يقوده الجنرال فرانكو في أثناء الحرب الإسبانية الأهلية. وكان الجنرال ميلان أستري قد فقد في معارك سابقة إحدى رجليه،



الفيلسوف أونامونو في مكتبه

واحدى يديه، وإحدى عينيه، وهو مؤسّس الكتائب عام ١٩٢٠م؛ لذلك أشار إليه ميغال دو أونامونو في خطابه بالمُقعد المُعاق.

والأسقف المذكور هو الدكتور بلاي دينيال (Play Deniel) أسقف مدينة سلمنقة التي وقعت في أيدي القوميين الانقلابيين في بداية الحرب الأهلية، وهو الذي دعا فرانكو إلى الإقامة في هذه المدينة، كما أنه راعي الحفل المذكور.

بدأ الحفل، وكان من بين الخطباء الجنرال ميلان أستري، الذي قدّم الانقلاب الفاشي وما تبعه من معارك شكّلت بداية الحرب الأهلية بوصفه (حرباً حضارية دفاعاً عن المسيحية)، واتّهم بعض الجماعات الإثنية التي تعيش في إسبانيا منذ التاريخ القديم كالباسك والكتالون بالخيانة للوطن، وكان خطاباً مفعماً بالعنصرية، والشوفينية، والكراهية.

وكان مثل هذا الخطاب مستفزاً لرجل أديب ومثقف وفيلسوف

المُعاق الذي لا يتمتع بالتفوق الفكري لسيرفانتس قد يبحث عن سعادته في تزايد عدد المُعاقين من حوله


الجنرال فرانكو وزوجته

مثل ميغال دو أونامونو، فردّ عليه بأن الحرب ليست حضارية، وأن الوطن لكلّ أبنائه على اختلاف أصولهم وأعراقهم وتوجّهاتهم، وأنهم جميعاً يشاركون في بناء مجده وعظمته، وحذّر من عواقب الحرب التي كانت تعيشها إسبانيا، وأنها غير مبرّرة، وغير منطقية. واستشرف نهايتها، متنبّئاً بانتصار المعسكر الفاشي سياسياً، وهزيمته فكرياً؛ لأنه مشروع غير قابل للحياة بقدر ما هو مستند إلى القوة المحضة.

الخطاب الحاسم

هذا هو نصّ الخطاب التاريخي للحكيم دو أونامونو، الذي ألقاه بوصفه رئيس الجامعة التي التأم فيها الحفل:

«تتطلعون جميعاً إلى ما سأقوله، وأنتم جميعاً تعرفونني، وتعلمون أنني غير قادر على التزام الصمت. خلال ثلاثة وسبعين عاماً من الحياة لم أتعلم الصمت، واليوم لا أريد تعلّمه. الصمت أحياناً يعادل الكذب؛ لأن الصمت في بعض الأحيان علامة رضا. وأنا لا أستطيع البقاء مع وجود تعارض بين قولي وضميري اللذين كانا دائماً في تعايش رائع.

سوف أوجز الكلام، والحقيقة تكون أكثر صدقاً عندما تظهر من دون تجميل وإسهاب مخلّ. أودّ التعليق على الخطاب الذي ألقاه الجنرال ميلان أستري الموجود بيننا، وسأتجاهل الإهانات الشخصية عبر هجمة القدح في الباسك والكتالون.

لقد وُلدتُ في مدينة بيلباو في ظلّ قصف الحرب الكارلية الثانية، وفي وقت لاحق تعلّقت بهذه المدينة سلمنقة، التي أحببتها كثيراً من دون أن أنسى مسقط رأسي. والأسقف - أحبّ ذلك أم كره - وُلد في برشلونة، فهو كتالوني.

ورد كلام عن حرب عالمية دفاعاً عن الحضارة المسيحية، لقد استخدمتُ قبل ذلك مثل هذه اللغة، لكن حربنا اليوم غير حضارية، الانتصار لا يعني الإقناع مع أن الأمر يتمثّل فيه أولاً، كما أن الكراهية التي لا تترك مجالاً للرحمة تعجز عن تحقيقه.

كما ورد حديث أيضاً عن الباسك والكتالون ووُصفوا بالمُعادين لإسبانيا، ويمكنهم لعدة أسباب أن يقولوا الشيء نفسه عنا نحن. وأمامنا مولانا الأسقف، الكتالوني الأصل، الذي يُعلّمكم العقيدة المسيحية التي تُصرّون على تجاهلها. وأنا من أصل باسك، وقضيت عمري أعلّمكم اللغة الإسبانية التي تجهلونها».

مقاطعة أولى: نداءات في القاعة من طرف أنصار الجنرال ميلان أستري: يحيا الموت (Viva la muerte).

ويواصل أونامونو خطابه قائلاً:

«سمعتُ الآن صرخة أَكَلَة الجِيَف: (يحيا الموت)، التي ترنّ في أذناي كالقول: (الموت للحياة). وأنا الذي قضى حياته في نحت المفارقات التي تغضب كل الذين لا يفهمونها سأقول لكم بكل ما أمثّله من مرجعية في هذا الشأن: إنني أجد هذه المفارقة سخيفة. وبما أنها موجّهة إلى آخر الخطباء لتكريمه فسأعدّ أن هذه المفارقة فعلاً موجّهة إليه (أي: الجنرال ميلان أستري). صحيح أن ذلك يتم بطريقة ملتوية وغير مباشرة؛ مما يشهد أنه هو في حدّ ذاته رمز للموت.

ثمة أمر آخر، هو أن الجنرال ميلان أستري مُعاق، ولا داعي لقول ذلك بصوت منخفض. إنه مُعاق حرب، وكانت هذه حال سيرفانتس (Cervantes) أيضاً، إلا أن الشواذّ لا يشكّلون القاعدة. يوجد اليوم كثير من المُعاقين، وللأسف سيتكاثرون إن لم يرحمنا الله. وإنني أتألم لأن الجنرال ميلان أستري قد يضع قواعد سيكولوجية الجماهير؛ فمُعاق دون العظمة الروحية لسيرفانتس الذي كان رجلاً - وليس سوبر رجل - فحلاً، وكاملاً على الرغم من عاهته. لكن المُعاق الذي لا يتمتع بالتفوق الفكري لسيرفانتس قد يبحث عن سعادته في تزايد عدد المُعاقين من حوله. لا يعدّ الجنرال ميلان أستري من بين العقول المستنيرة مع عدم شعبيته، أو بالأحرى بسبب عدم شعبيته. ويريد الجنرال ميلان أستري جعل إسبانيا الجديدة على شاكلته: لذلك يريدها مُعاقة، وهذا ما يشير إليه من دون وعي».

مقاطعة ثانية: نداءات في القاعة من طرف أتباع الجنرال ميلان أستري: يسقط المثقفون Abajo la inteligencia، الموت للخونة Muerte a los traidores.

ويواصل أونامونو خطابه قائلاً:

«هذه الجامعة هي هيكل الثقافة، وأنا كاهنه الأكبر. إنكم أنتم الذين تُدنّسون هذا الحَرَم المُقدس. وعلى الرغم مما يقوله المثل: (أنا نبيّ بلدي)، أقول: ستنتصرون، لكنكم لا تُقنعون. ستنتصرون لأنكم تمتلكون كتلةً هائلةً من القوّة الغاشمة، لكن لن تتمكّنوا من الإقناع؛ لأنه يعني امتلاك القدرة على تحقيقه. وهذا بدوره يتطلب منكم ما لا تمتلكون: الحجة والحق بالنسبة إلى معركتكم. ويبدو لي أنه من العبث حثّكم على التفكير في إسبانيا. قلت ما سمعتم».

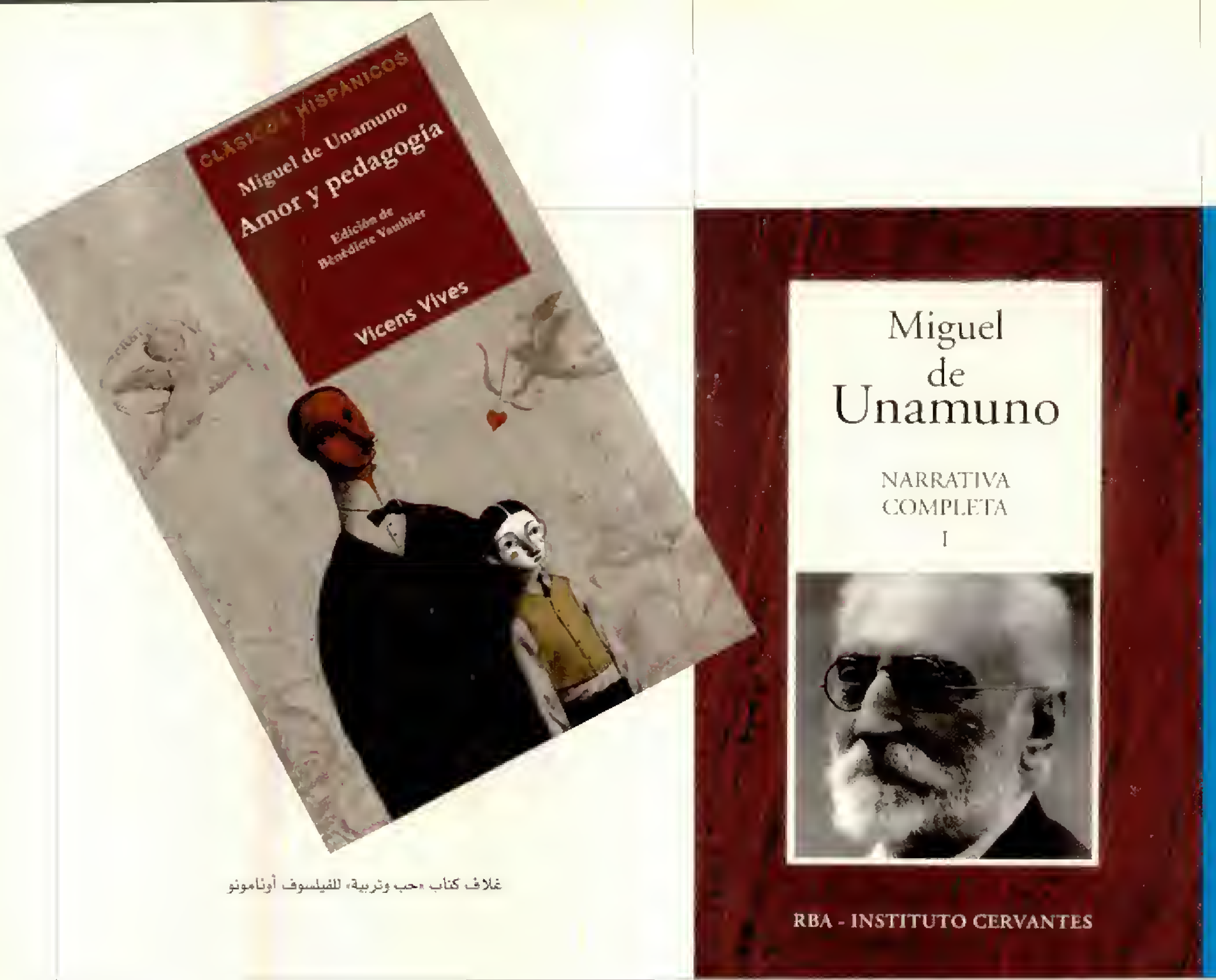
وبعد أن أنهى ميغال دو أونامونو خطابه نزل من على المنصة والجمهور يتدافع في اتجاهه غاضباً، وتهديدات بالقتل تتعالى من هنا وهناك. صخب ومرج وهرج، وأنفاس عسكرية تلفّ القاعة الرهيبة، ورائحة عرق أزياء الميري والميليشيات تملأ الأرجاء.

وقف أونامونو، ووقف قبالته الجنرال ميلان أستري وجهاً لوجه، قوة الفكر تتحدى منطق القوة. احتدّ الموقف، تقدّمت كوكبة من حرّاس الجنرال المسلحين والتفّوا حوله كأنهم يريدون حمايته بأسلحتهم من أثر نظرات الشيخ الفيلسوف الأعزل التي تتّقد حكمةً ومعرفةً. سحب أحدهم بندقيته ورفعها في اتجاه الحكيم، ووضع إصبعه على الزناد، ينتظر إشارةً من جهة ما بإطلاق النار. أونامونو في مواجهة الموت، لكنه لا يزال يقف منتصب القامة في وجه الطاغية، والجنرال ميلان أستري كديك رومي أبتر، يتباهى بالأوسمة الملوّنة المعلقة على صدره التي نالها في معاركه الاستعمارية على أرض المغرب حيث فقد بعض أعضائه الحيوية.

هنا حدث أمر غريب غير متوقع، قامت سيدة ذات حضور ووجاهة كانت تجلس في الصف الأول، وتجاهلت الحراسة المشدّدة التي كانت تحيط بها لحمايتها الشخصية، وتقدمت وشقّت طريقها بتأنٍّ وتؤدة في ملابسها الفاخرة الأرستقراطية، وتوجّهت نحو الشيخ الفيلسوف، ووقفت بينه وبين الجنرال ميلان أستري كأنها تريد فكّ الاشتباك، ثم أمسكت بذراع الشيخ الفيلسوف بكل رفق واحترام، وأشارت بفتح الطريق أمامهما بتوجيه نظرها نحو بوابة الخروج، فانفلق الحضور يمنةً ويسرةً، وارتبكت الجموع، وعلت على الوجوه علامات التساؤل والاستغراب: ماذا تفعل هذه السيدة في وجه الحشود الغاضبة؟ لكن حُسِم الأمر.

اصطحبته السيدة إلى السيارة التي ستقلّه إلى بيته حيث سيقيم ميغال دو أونامونو تحت المراقبة الإدارية. هذه السيدة تُدعى الدونا كارمين بولو دي فرانكو (dona Carmen Polo

خلال ثلاثة وسبعين عاماً من الحياة لم أتعلم الصمت، واليوم لا أريد تعلّمه. الصمت أحياناً يعادل الكذب



غلاف كتاب «حب وتربية» للفيلسوف أونامونو

غلاف كتاب «القصة الكاملة» للفيلسوف أونامونو

de Franco)، إنها زوجة الجنرال فرانكو نفسه زعيم المعسكر الفاشي الذي كان أونامونو قبل قليل يخطب ضده، ويُدين وحشيته ودمويته وعنصريته. مفارقة يصعب تصوّرها. مشهد رهيب. لكن عظمة الرجل فرضت نفسها على خصومه، حياته كانت خطأً أحمر. لم يرهب الموت، ففرّ منه الموت.

على إثر هذا الحادث اجتمع مجلس الجامعة وقرّر عزل الدكتور ميغال دو أونامونو من منصب الرئاسة، فبقي حبيس بيته، يعيش في سلام داخلي وراحة ضمير، إلى أن توفي بعد هذا الحدث في نهاية السنة ذاتها. وانتصرت فاشية الجنرال الكوديلو (فرانكو)، وحكم إسبانيا إلى أن توفي عام ١٩٧٥م. واحتفظ التاريخ للحكيم دو أونامونو بموقفه هذا، في حين ظلّ فرانكو يُذكر بأعداد ضحاياه من القتلى والمشوهين والأيتام والثكالى، وتسلّطه على شعبه. وظلّت كلمات الشيخ الحكيم تتردّد في أنحاء العالم: «ستنتصرون، لكنكم لا تُقنعون».

مؤلّفات أونامونو

صنّف أونامونو عدة مؤلفات فلسفية وأدبية، منها: حب وتربية (Amor y Pedagogia) عام ١٩٠٢م، وضباب (Niebla) عام ١٩١٤م، وآبيل سانشيز: تاريخ من الماضي (Abel Sanchez :una historia de pasia) عام ١٩١٧م، وثلاث روايات نموذجية Tres Novelas ejemplares y un prologo عام ١٩٢٠م، وشعر: مسيح فيلاسكيز (El Cristo de Velazquez) عام ١٩٢٠م، وجوهر إسبانيا (En torno al casticismo) عام ١٨٩٥م، وهو أول مؤلّف لأونامونو، وبيّن فيه أن روح إسبانيا وجوهرها لا يتمثلان في النصرانية الأرثوذكسية المدرسية، بل يكمن في التصوف والإنسانوية والفردانية، والإحساس المأساوي للحياة (Del sentimiento tragico de la vida) عام ١٩١٢م، واحتضار النصرانية (la Agonia del cristianismo) عام ١٩٢٥م.

خادم الحرمين الشريفين يتسلّم جائزة (أعلم)



فاز خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز بجائزة الاتحاد العربي للمكتبات والمعلومات لعام ٢٠٠٩م بوصفه من الشخصيات البارزة الداعمة للعمل المعرفي، والساعية إلى تطوير نظم المكتبات، وتوسيع نطاق إشعاعها.

وتسلّم الدكتور محمد البشر - سفير المملكة العربية السعودية لدى المغرب - الجائزة خلال الحفل الذي أقيم في مدينة الدار البيضاء ضمن فعاليات المؤتمر العشرين للاتحاد العربي للمكتبات والمعلومات (أعلم)، الذي نُظّم بالتعاون مع وزارة الثقافة المغربية ومؤسسة الملك عبدالعزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية.

توقيع الموسوعة الكبرى للشعراء العرب في فاس

صدر الجزء الأول من الموسوعة الكبرى للشعراء العرب الذي قامت بإعداده الشاعرة المغربية فاطمة بوهراكة. وصدر عن دارة الشعر المغربي برعاية الشيخة أسماء بنت صقر القاسمي. وجاء في ١٠٢٤ صفحة، واشتمل على سير ذاتية وقصائد وصور لألف شاعر وشاعرة يكتبون الشعر الفصيح بكل أشكاله من أنحاء الوطن العربي (١٩٥٦- ٢٠٠٦م).

ووجّهت رئيسة دارة الشعر المغربي في مقدمة الموسوعة الشكر إلى الشعراء والإعلاميين الذين تطوّعوا لدعم الموسوعة بجهدهم ووقتهم، كما عتبت على اتحادات الكتاب والروابط الأدبية العربية التي أرسلت إليها خطابات عن الموسوعة لتعميمها على الشعراء كلّ في بلده، ولم يستجب لطلبها وخطاباتها سوى اتحاد كتّاب السودان في شخص رئيسه د. محمد جلال هاشم، ونسرين النمر اللذين تعاملا مع المشروع بكل جدية وحزم، وقدما لها بحثاً مفصّلاً عن شعراء السودان.

وأوضحت بوهراكة أن الهدف الأسمى للموسوعة الشعرية هو توحيد صفوف البلدان العربية داخلياً وخارجياً في قالب شعري راقٍ لا يقبل التشرذم والتشيّع.

وقدّم د. أنس أمين بائيته (زغرودة الطرب)، وأعقبه أحمد فضل شبلول بقصيدة عن حال الشاعر في عصر العولمة. ومن الصحراء المغربية قدّمت الشاعرة خديجة ماء العينين قصيدة، وقرأ د. ناصر لوحيشي قصيدته (الصدى المخضل)، وعبر الشاعر السعودي علي الدرورة عن حبه مدينة فاس، بينما قرأ الشاعر السوري محمود عبدو عبدو قصيدته (الآتون بمحض الصدفة.. الباقون بمحض الحب).

فوز فلم عن فلسطيني تزوّج يهودية بجائزة مهرجان القاهرة للإذاعة والتلفزيون

(غزة ٢٠٠٩) فلم فلسطيني عن واقع الفلسطينيين المرير تحت الاحتلال الإسرائيلي، خصوصاً في قطاع غزة المحاصر منذ سنوات. ويدور الفلم حول فلسطيني يدفع حياته ثمناً لزواجه من يهودية، بينما يتعلّم أبناؤه التلمود والتوراة في إسرائيل، في قصة واقعية تعجز الأقلام عن كتابتها. وكان شاب فلسطيني من غزة قد تزوّج يهودية من الناصرة العليا حيث كان يعمل هناك، وجمع الزواج بينهما بعد إعلان اليهودية إسلامها، وذهابهما إلى العيش في غزة معه، وإنجاب ستة أطفال. ولكن بعد مرور ثماني سنوات دبّت الخلافات بينهما؛ لعدم قدرة الزوجة على العيش في أجواء غزة بعد اشتداد حصارها، فقرّرت العودة إلى الناصرة وأخذ ثلاثة من أبنائها، وتركت الثلاثة الآخرين بينهم طفلتان توأم لم تبلغا من العمر سوى ٢٧ يوماً، إحداهما معاقة.

وتتوالى فصول معاناة الشاب الفلسطيني بعدما بدأت المخابرات الإسرائيلية مساومته لترك أبنائه، لكنه رفض الأمر بشدة، إلى أن استشهد بصاروخ طائرة إسرائيلية في أثناء وجوده أمام منزله في الحرب الأخيرة على غزة. وحاز الفلم على المرتبة الأولى في مهرجان القاهرة للإذاعة والتلفزيون من بين ٤٠٠ عمل إذاعي وتلفزيوني شاركت في المهرجان من مختلف الدول العربية. وسبق أن حاز الفلم على الجائزة البرونزية عن فئة البرامج الوثائقية في المهرجان العربي للإذاعة والتلفزيون الذي أقيم هذا العام في تونس.



العصر الرقمي يوقف أهم مجلات التحرير والنشر

توقّفت أهم المجلات الإعلامية الأمريكية المتخصّصة بالنشر والتحرير عن الصدور بعد مئة عام حسب ما أعلن معهد (نيلسن) الناشر لهذه المجلة، إلى جانب مجلة النقد الأدبي (كيركوس ريفيوز)، التي بدأت في الصدور منذ عام ١٩٣٣م. وستشتري (إي فايف غلوبل ميديا)، وهي شركة تابعة للصندوق الاستثماري (بلورييامس مانجمينت) و(غوغنهايم بارتنرز)، ثمانية من منشوراتها، بينها (هوليوود ريبورتر) و(بيلبورد) اللتان تحظيان بنفوذ واسع في الوسطين السينمائي والموسيقي.

ولم يتم إعطاء أيّ تفاصيل إضافية، ولم يحدد عدد الموظفين الذين سيخسرون عملهم بسبب وقف العمل في (كيركوس ريفيوز) و(إيديتور آند بابليشير) بسبب انخفاض العائدات الإعلانية، وتراجع عددها، وازدياد إقبالهم على شبكة الإنترنت للحصول على الأخبار.

يُذكر أن دار النشر الأمريكية (كوندي ناست) أغلقت أربع مجلات تابعة لها، هي: (كوكي)، و(غورمي)، و(مودرن برايد)، و(إيليغانت برايد) في إثر الأزمة الاقتصادية المتصاعدة، والإقبال على الإنترنت. وأدى إغلاق هذه المجلات الأربع إلى فقد زهاء ١٨٠ شخصاً وظائفهم.

وفي ظلّ هذه الأوضاع القاتمة لمستقبل الصحافة الورقية، يتوقع جون نيكولز - مراسل مجلة (نيشن) في واشنطن - وروبرت ماك جيزتي - مؤسّس شبكة الصحافة الحرة - أن تعود الصحافة الورقية إلى الواجهة من جديد في العام المقبل.

استطلاع



محافظة الأفلاج وجبل التوباد وقيس بن الملوح

استطلاع: هزاع الشمري

تصوير: هاشم الشريف

الرياض - السعودية

في صباح يوم الخميس السادس من ربيع الآخر الماضي مخرت بنا السيارة إلى محافظة الأفلاج. وعاصمتها مدينة (ليلى): هاشم الشريف، ويوسف الشاب المغربي، وأنا هزاع بن عيد الشمري. وعلى طول الطريق الطويل لم تنقطع عنا مدينة، أو قرية، أو محطة استراحة وتزوّد بالوقود، أو مزرعة عامرة؛ حتى وصلنا مدينة ليلى عند الساعة الثانية ظهراً. ووجدنا فندقاً فسكناه. وفي الثالثة ظهراً توجّهنا إلى بلدة الأحمر، وقرية واسط، وجوّلنا فيهما. وفي الساعة الثامنة عُدنا إلى مدينة ليلى، وما هي إلا لحظات من عمر الزمن حتى نشأ غيم كثيف، وبرق يتلألأ في عنق السماء، وكانت دعوة من أخ كريم في بلدة البديع لازمة، فتوجهنا. وفي الطريق القصير انهمرت السماء مدراراً، وتملّست حتى أصبحت ديمة طوال الليل.

وفي صباح اليوم التالي، توجّهنا إلى الهدار، وفيها كانت لنا فسحة وجولة، ومنها عُدنا إلى ليلى في طريقنا متوجهين إلى التوباد؛ الجبل الذي شهد قصة عشق مدوّنة في لغات العالم بين قيس بن الملوح وليلى العامرية، ثم توجّهنا إلى طريقنا: مدينة الرياض العامرة.

مدينة الأفلاج (ليلى)

الأفلاج اسم عام للمحافظة، وهي إحدى محافظات منطقة الرياض إدارياً، وتبلغ مساحة المحافظة نحو (٥٤١٢٠كم²). وسكانها نحو ١٣٠ ألفاً. أما مدينة ليلى، فتبعد عن مدينة الرياض بنحو ٣٢٠كم جنوباً، ويشقها مع وسطها طريق الرياض - السليل المزدوج السريع. ويسمى في وسط المدينة بطريق الملك عبدالعزيز.

وتقع المدينة وسط سهل فسيح واسع خصب.

وتقع المباني الحديثة في غربي الشارع العام متكونة من فلل وقصور على الطرز المألوفة في مدن المملكة.

أما شرقي الشارع العام، فيقع السوق الرئيس، ثم يليه من الشرق مدينة ليلى القديمة، التي تتكون من بيوت الطين والمزارع، وقد عدا عليها الدهر، فتهدم أكثرها، وهجرها الناس. وقلة قليلة منها لا تزال واضحة للعيان إلى اليوم، إلا أنها لا محالة ستتبع سابقتها. وتكثر في المدينة النخيل الباسقات ومزارع الحبوب، إلا أن العمران طغى عليها، وصار يزحف إلى أعماق المزارع ويأخذ منها. ويسكن المدينة في غالب أمرها قبيلة الدواسر المستوطنة منذ القدم، التي ورثت بني عامر هوازن؛ سكّانها الأقدم.

وكانت بقرب (ليلى) نحو سبع عشرة عيناً جارية على وجه الأرض تُعرف بعيون الأفلاج؛ مثل: عين (الزباء)، وعين (الرأس)، وعين (أم هيب). ولا نعرف أرضاً في جزيرة العرب أخصب من تلك البقعة، ولا أكثر ماءً حتى وقت قريب لا يتعدى ٣٠ عاماً مضت، ثم جفّت هذه العيون وغارت، وسبحان مغيّر الأحوال.

ويُظنُّ أن سكان تلك المنطقة القدامى هم طسم وجديس، ثم توالت عليها عدة هجرات لقبائل متصارعة شديدة المراس. وكانت

بنو عامر الهوازنيون قد قطنتها نحو مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم، خصوصاً جعدة، والحريش، وقشير، فشيّدوا البنيان، وزرعوا وتوسّعوا. وفي عصور متأخرة انداحت بنو عامر، فغلبت قبيلة الدواسر على ليلى وقطنوها، ونعموا بمائها، ومرعاها، وزرعها.

ويُقال: إن المدينة سُمّيت باسم ليلى العامرية، وتحفل كتب الأدب العربي بقصة قيس المجنون وليلى، وسنأتي على شيء منها في أثناء حديثنا عن التوباد.

قرية واسط

تُعرف بواسط اليمامة، وهي قرية وادعة تقع على طريق ليلى – الأحمر، وهي إلى الأحمر أقرب، ولا تُشاهد إلا إذا أشرفت عليها؛ إذ إنها في مهبط من الأرض في وادي الأحمر، وبها صيور نخيل جميلة المنظر تغرّد بها طيور القمري بأصوات شجية بديعة. والقرية اليوم لآل لحيان من قحطان، وكانت لبني جعدة من بني عامر، ويحيط بها سور قديم مبنيّ من الطين، وأظنّه يعود إلى نحو القرن الثامن الهجري، ولا تزال بقاياه باقيةً للعيان. ومن معالمها قصر (السبعة)، الذي يُعتقد أنه بُني في القرن التاسع الهجري، ومجموعة من الآبار القديمة المطوية، والبرج الذي بناه عمر بن محمد آل لحيان، وهو داخل صير من النخيل، وبُني منذ نحو ٨٠ عاماً. وقد ورد ذكر لواسط اليمامة هذه في شعر لخداش بن زهير العامري (جاهلي):

عـفـا واسـط كــلأؤهُ فـمـحـاضـرُهْ
إلى حـيـثُ نـهْـيـا سـيـلـه فـصـدائـرُهْ
ومـطـويـة طـيَّ الـقـلـيـب حَـبَـسْـتُـهـا
لـذي حـاجـة لم أعْـيَ أيـن مـصـادرُهْ

يعني أنه كان يحبس نوقه على الأضياف.

بلدة الأحمر (أُكمة)

أُكمة بضم الهمزة، وسكون الكاف، وهو الاسم القديم لبلدة الأحمر، التي تبعد عن ليلى نحو ٦٥كم غرباً، وهي بوادي الأحمر، واسمه القديم وادي (كُرْز)، الذي يضيق في الشرق، وينفرج من الشمال الغربي والغرب، وتقع في منحدر من الأرض، ولا تكاد تظهر هذه الجبال إلا إذا نزلت الوادي. ويتفرع أو يرفد وادي (كرز) عدة أودية أخرى.

والأحمر بلدة زراعية كبيرة، تحفّها النخيل الكثيفة، وأبنيتها على الطرز المألوفة من المدن السعودية اليوم، وهي الأسمنت المسلح. وتتراصّ بيوت الطين القديمة التاريخية والمتأخرة وحداناً وجماعات في البلد. ومن هذه البيوت: قصر (أبو الأصفر)، وهو قصر مبنيّ من الطين، قديم أثري مهيب، وحوله قصور قديمة، وآبار يُعتقد أنها جاهلية؛ لكونها مطوية بإحكام. وفي الأحمر سور قديم يطوّق المدينة، ولا تزال له بقية باقية. وخارج البلدة قصر مبنيّ على صخرة، يُسمَّى قصر (المرأة)، على شكل قلعة، وهو على الطريق العام بينها وبين قرية واسط، ولم يبقَ إلا أطلاله.

وفي الأحمر مسجد بُني منذ نحو ٤٠ عاماً مضت، ولكنه لا يزال على حُسن بنيانه، ويقع في قصور آل ظافر من الشكرة من الدواسر، وجُلّ سكانها هم الشكرة.

ويُقال: إن سبب تسميتها بالأحمر هو مقتلة بين أهلها، وغزاة حدثت في الزمن البعيد سالت على إثرها الدماء. إلا أنني أرجّح أن سبب التسمية من أكمة إلى الأحمر هو وجود التربة الحمراء في أرض البلد، وكذلك لحمرة جبالها، والله أعلم.

وكان يقطن البلدة في القرن الرابع الهجري بنو جعدة. وبنو قشير العامريون؛ عامر هوازن، وكانت آهلة بالنخيل والزرع، وبها مبنى وسوق عظيمة، وعليها حائط (سور) على جوانب وادي (كُرْز).

بلدة الهدار

تبعد الهدار نحو ٦٨كم غرباً من البديع، وهي بلدة وادعة جميلة، مبانيها من الطرز الحديثة، وتضاريسها تقترب من تضاريس الأحمر؛ إذ إنها منطقة تقع بين جبال، تنفرج كثيراً في الشمال الغربي حيث سهل واسع، ويخترقها واديان: أحدهما كان يتدفق ماءً، ويجري إلى مصبّه وقتها؛ إذ إنها كانت ممطورة بغزارة ليلة البارحة. ويسكن الهدار اليوم النتيفات، والمصارير، والوداعين. ويتفرق فيها عدد من صيور النخيل، ومزارع الحبوب. وكانت عامرةً منذ زمن الجاهلية؛ إذ وُلد فيها مسيلمة الحنفي المنعوت بالكذاب، وقائل يقول: إنه وُلد بأعلى وادي حنيفة في بلدة تسمّى الهدار بالقرب من مدينة الرياض الآن، وإن هدار مسيلمة هذه قد درست. وسكنتها عشائر من بني عامر بن صعصعة، خصوصاً قبيلة الحريش، وذلك في صدر الإسلام. وفي القرن الرابع الهجري كانت آهلة بالسكان، وفيها نخيل، وزرع، وآبار، وسوان من الإبل، وفيها

التوباد

هو جبل أملس من أعلى على مستوى سطح الأرض في منحدر من الأرض؛ إذ يحفّ به وادي الغيل، ولا يكاد يظهر للعيان، ويقع على بُعد ٤٢كم شمال ليلى. وارتبط هذا الجبل بقصة حب عنيفة وقعت في صدر الإسلام، تُعرف بقصة (قيس وليلى)، مذكورة في الأدب العربي، ولها ترجمات معروفة في عدة لغات عالمية اليوم.

وتقع في وادي الغيل قرية الغيل، وقرية ستارة، وبهما نخل وزرع، وحولهما سوران من طين قديمان يدلان على قدم المنطقة، ولهما بقية ظاهرة. وفي الغيل مقبرة إسلامية تقع عند طرف جبل التوباد من الشرق، وهي غير مسوّرة أو محفوظة.

وكانت الغيل بلدة لبني عبدالله بن جعدة العامري الجعدي، وبها الزرع والآبار والحصون، وتقع على حافة الجبل الجنوبية. وتمتد المدينة - القرية - الحديثة من الشرق إلى الغرب في وادٍ ضيق تزنقه الجبال، وبها اليوم بعض النخيل والزروع والبيوت الأسمنتية المسلحة. قال مجنون بني عامر العاشق يذكر الغيل (الأغاني):

أبـــتْ لـيـلـةٌ بـالـغَـيْـل يـا أم مـالـكٍ
لـكـم غـيـر حـب صـــادق لـيـس يـكـذبُ

ألا إنمـــا أبـقـيـتِ يـــا أم مـالـك
صـدى أيـنـمـا تـذهـب بـه الـريـحُ يـذهـبِ

أما القرية الأخرى فهي ستارة، وتقع على غرب التوباد، وقد اتّصلتا، وهي أفسح مكاناً من قرية الغيل، وكانت عامرةً بالنخل والزرع والحصون والعيون الجارية، وهي لبني عبدالله بن جعدة في صدر الإسلام إلى وقت متأخر منه. قال المجنون (المنازل والديار):

أهــــاجـكِ أمْ لا بـالـسِّـتـاريـن مَـرْبَـعُ
ورســـمٌ بـــأجـــراع الـغـديـريـن بـلـقـعُ

ديـارٌ لـلـيـلـى إذ نَـحُــــلُّ بـهـا مـعـــاً
وإذ نـحـن مـنـهـــا بـالـمـودَّة نـطـمـعُ

فـيـا ربِّ حـبِّـبـنـي إلـيـهـا وأعـطـنـي الـ
ـمـودَّة مــنـهـا أنــت تُـعـطـي وتمـنـعُ

ولنعُدْ إلى التوباد وقصة مجنون بني عامر وليلى العامرية. فالتّوباد - بفتح أوله - أملس الظهر؛ أي أنه على مستوى الأرض من الشمال، وبإمكانك مشاهدة ما حوله من على ظهره. أما جهتاه الجنوبية والغربية فهما وعرتان، وهو جبل طباشيري أبرق، وتحته وادي الغيل.



بيت قديم يعكس تفرّد العمارة



اللوحة التذكارية لافتتاح المسجد

حصن موسى بن نمير الحرشي، وحصن أبي سمرة الحرشي، وحصن آخر، وكانت محاطة بسور عظيم له رمس اليوم يحوط بالبلدة القديمة. أما وادي الهدار، فهو وادٍ عظيم يتّجه من جبال حولها، ويشق البلدة متّجهاً ناحية الشرق على مسافات طويلة داخل منطقة جبلية ضيقة، وعليه عدة جسور أقامتها الحكومة السعودية. ومن حسن الحظ أنه كان يهدر ذلك اليوم (الجمعة ٦-٤-١٤٣٠هـ) من مطر البارحة الغزير، الذي هطل على منطقة الأفلاج بكاملها.

البديع

قرية كبيرة على طريق الرياض - السليل السريع جنوب بلد ليلى بنحو ٣٦كم، وهي للدواسر، وبها نخيل وزرع، وفيها قصر (سلمى)، الذي شيّده الفارس حماد بن فيصل الجميلي. ولا أنسى ذلك البرق الذي يشقّ السماء على تلك القرية، ثم هطل المطر، حتى أصبحت السماء ملساء، فديمت ونحن بها عند ذلك الرجل الشهم فهد بن ناصر الشكرة ليلة الخميس الجمعة (٥ و٦/٤/١٤٣٠هـ).



أطلال بيت قديم يحفّه النخيل



باب قديم يقف متحدياً عوادي الزمن

وعلى الرغم من وجود التوباد في صدر الإسلام بهذا الاسم فإن اللسانيين قد أهملوه: مثل: ابن منظور، والعويثي، والفيروزابادي، وعدد آخر، غير أن الزبيدي في (تاج العروس) قد استدركه، وقال: التوباد: أبرق أسد. وفي (معجم البلدان)، قال: التوباذ، بالذال، وهو أبيرقُ أسد. ويبدو أنه نقله عن كتاب الأمكنة والمياه لنصر الإسكندري. وقال: التُّوباذ: أبيرق أسيِّد. ونقله كلاهما عن الأمالي؛ إذ قال: التُّوباذ: جبل لبني عامر. وهذا عجب من أصحاب اللسانيات.

وهناك التُّوباد - بضم أوله - جبل ناري شمال خيبر، وبه قصة مجنون ليلى، فأيّهما هو ذلك؟!.

فأبو الفرج الأصفهاني قد أورد أخبار مجنون بني عامر في نحو ٩٦ صفحة في كتابه (الأغاني)، وقد أبدع دراسةً وتحليلاً، وأكثر من إيراد الشعر له في قصة حبه ليلى. واسمه عنده: قيس، وقيل: مهدي، وقيل: البحتري بن الجعد، وقيل: الأقرع بن معاذ، وقيل: قيس بن معاذ العقيلي، وقيل: اسم المجنون قيس بن معاذ الجعدي. وقال أبو الفرج: والصحيح أنه قيس بن الملوَّح بن مزاحم بن عُدَس بن ربيعة بن جعدة بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة الجعدي العامري. وفي (التنبيه) قال البكري: قال أبو الفرج: إنه قيس بن مرّ بن قيس بن عُدَس: أحد بني كعب بن ربيعة بن عامر.



نخيل أماله ثقل السنين

ولقّب بالمجنون؛ لأنه جهد نفسه في حب ليلى، وقيل: كانت به لوثة ولم يكن مجنوناً. وكان جميلاً كاملاً. واسم صاحبته: ليلى بنت سعد بن مهدي بن ربيعة بن الحريش بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة، وقيل: بنت مهدي بن سعد بن مهدي، وتكنى أم مالك، وقيل: أم عمرو. وكانت من أجمل النساء، وأظرفهن، وأحسنهن جسماً وعقلاً، وأفضلهن أدباً، وأملحهن شكلاً، فعلق كل واحد منهما صاحبه وهما يرعيان مواشي أهلهما، فلم يزالا كذلك حتى كبرا، فحُجبت عنه، فأحدث به هذا الحب هذا الجنون.

عن ابن شبة قال: حدثنا عون بن عبدالله العامري قال: ما كان والله المجنون الذي تعزونه إلينا مجنوناً، إنما كانت به لوثة وسهو أحدثهما به حب ليلى. وعن عبدالجبار بن سليمان بن نوفل بن مساحق القرشي، عن أبيه، عن جده، قال: أنا رأيت مجنون بني عامر، وكان جميل الوجه، أبيض اللون، قد علاه شحوب.

حدثنا عبدالجبار بن سعيد بن سليمان بن نوفل بن مساحق، عن أبيه، عن جده، قال: سعيتُ على بني عامر، فرأيت المجنون، وأتيتُ به، وأنشدني.

وتزوجت ليلى من رجل من ثقيف، فأبعدت عنه ولم يرها، فازداد جنوناً. قال القالي بسنده: أخبرتُ أن أبا المجنون قال له حين سار به إلى بيت الله الحرام، وكان أخرجه ليستشفي له: تعلَّق بأستار الكعبة، وقُل: اللهم أرحني من ليلى ومن حبها، وتُبْ إلى الله مما أنت عليه. فتعلَّق بأستار الكعبة، وقال: اللهم مُنَّ عليَّ بليلى وقربها. فزجره أبوه، وجعل يعنِّفه.

قال المجنون (الأغاني):

وأجهشتُ للتوباد حين رأيتُهُ
وكبّر للرحمن حين رآني
وأذريتُ دمع العين لما عرفتُهُ
ونادى بأعلى صوته فدعاني

وقال (المؤتلف والمختلف):

فأصبحتُ من ليلى الغداة كناظر
مع الصبح في أعقاب نجم مُغرِّبِ

وقال (الأشباه والنظائر):

وما بِنْتُ إلا خاصم البينَ حبُّها
بحالين من قلبي مطيع وسامع
تبارك ربي كم لليلى إذا انتحتْ
بها النفس عندي من حميمٍ وشافع

وقال (لسان العرب):

فلا تتركي نفسي شَعاعاً فإنَّها
من الوجد قد كادت عليكِ تذوبُ

وقال المجنون أو عبدالرحمن بن حسان (الأشباه والنظائر):

كأن فؤادي في مخالب طائر
إذا ذُكرت يشُدُّ به قبضا

وقال المجنون (القالي):

وداعٍ دعا إذ نحن بالخيف من منى
فهيَّج أحزان الفؤاد وما يدري
دعا باسم ليلى غيرها فكأنما
أثار بليلى طائراً كان في صدري

وقال (الأشباه):

أصلّي فما أدري إذا ما ذكرتُها
أثنتين صلَّيتُ الضُّحى أم ثمانيا؟
وما بي إشراك ولكنَّ حبَّها
مكان الشجا أعيا الطبيب المداويا

وقال (القالي):

أمُــــزمِــعـــةٌ ليلــى بـبَــيْنٍ ولـــم تَمُــت
كــأنــك عــمــا قــد أظـلَّـــك غـافــل

ستعلم إن شَـطَّـتْ بـهـم غـربـة الـنـوى
وزالـــوا بـلـيـلـى أن قـلـبـك زائـل

وقـــال (المـــنـــازل والـــديـــار):

سـقـى الـعـلـم الـفـردَ الـذي في ظـلالـه
غـــزالان مـكــحــولان مـؤتـلـفـان

إلا أن هناك من ينكر حتى وجود المجنون بقصته هذه، فشعره نفسه يتنازعه ويتجاذبه شعراء كثر، منهم: القتال الكلابي، والشاعر الفارس، ونُصيب بن رباح، وقيس بن ذريح، وأبو صخر الهذلي، والقحيف العقيلي، وذو الرمة، وجميل بن معمر، ومزاحم بن الحارث المجنون، ومعاذ بن كليب المجنون، وكثيِّر عزة، ويزيد بن الطثرية، وابن الدمينة، وجران العود النمري، وأبو حية النميري، وعبدالرحمن بن حسان بن ثابت، ويعقوب بن الربيع، وسحيم عبد بني الحسحاس. واختلف بعض الرواة والأدباء في اسمه؛ فعن حماد ابن إسحاق، عن أبيه قال: اسم المجنون قيس بن معاذ؛ أحد بني جعدة بن كعب بن ربيعة. وقال الأصمعي: اسمه قيس بن معاذ. وذكر مثل ذلك أبو عمرو بن أبي عمرو الشيباني، فقال: اسمه قيس ابن معاذ. وعن يونس النحوي، وأبي عمرو الشيباني، أن اسمه قيس ابن الملوح. وكذلك قال به هشام بن محمد الكلبي. وقال إبراهيم ابن المنذر وأبو عبيدة بن المثنى: إن اسمه البحتري بن الجعد. وقال خالد بن كلثوم: إن اسمه مهدي بن الملوح. وذكر مصعب الزبيري، والرياشي، وأبو العالية: أن اسمه الأقرع بن معاذ.

أما الذين ينكرون وجود المجنون وقصة عشقه ليلى هذه أصلاً، فكثُرٌ أيضاً. فعن إبراهيم بن المنذر الحزامي، عن أيوب بن عَبَاية قال: إن فتى من بني مروان - الأمويين - كان يهوى امرأة منهم، فيقول فيها الشعر، وينسبه إلى المجنون، وإنه عمل له أخباراً، وأضاف إليها ذلك الشعر، فحمله الناس، وزادوا فيه.

قال أبو الفرج الأصفهاني بسنده، عن عوانة أنه قال: المجنون اسم مستعار لا حقيقة له، وليس له في بني عامر أصل ولا نسب. فسئل: من قال هذه الأشعار؟ فقال: فتى من بني أمية.

وقال ابن الكلبي: حُدِّثتُ أن حديث المجنون وشعره وضعه فتى من بني أمية كان يهوى ابنة عمّ له، وكان يكره أن يظهر ما بينه وبينها، فوضع حديث المجنون، وقال الأشعار التي يرويها الناس للمجنون، ونسبها إليه.

وعن الأصمعي قال: رجلان ما عُرفا في الدنيا قط إلا بالاسم: مجنون بني عامر، وابن القرية، وإنما وضعهما الرواة.

وعن الجاحظ أنه قال: ما ترك الناس شعراً مجهول القائل قيل

(أُكْمة) بضم الهمزة، وسكون الكاف، الاسم القديم لبلدة الأحمر، التي تبعد عن ليلى نحو ٥٦كم غرباً، وهي بوادي الأحمر، واسمه القديم وادي (كُرز)



من أهم مشاهد الأفلاج: مبانٍ ونخيل وجبال

صورة للذكرى في بلد قيس وليلى

نموذج لعمارة الأفلاج القديمة



في ليلى إلا نسبوه إلى المجنون.

وقيل لرجل من بني عامر: هل تعرفون فيكم المجنون الذي قتله العشق؟ فقال: هذا باطل.

وسُئل ابن عباية عن بيتين من الشعر: من قائلهما؟ فقال: جميل. فقال السائل: إن الناس يروونهما للمجنون؟!. فقال: ومن هو المجنون؟ فأخبره، فقال: ما لهذا حقيقة، ولا سمعتُ به.

وعن أبي موسى العدوي أنه سأل أبا بكر العدوي عن بيتين من الشعر، فقال: هما لجميل، ولم يعرف المجنون.

وعن ابن دأب قال: قلتُ لرجل من بني عامر: أتعرف المجنون وتروي من شعره شيئاً؟ قال: أو قد فرغنا من شعر العقلاء حتى نروي أشعار المجانين؛ إنهم لكثير. فقلت: ليس هؤلاء أعني، إنما أعني مجنون بني عامر، الشاعر الذي قتله العشق. فقال: هيهات، بنو عامر أغلظ أكباداً من ذاك.

وعن أيوب بن عباية قال: سألت بني عامر بطناً بطناً عن مجنون بني عامر، فما وجدت أحداً يعرفه.

ثم هناك بعض الأمكنة في جزيرة العرب تحمل اسم التوباد، فيوجد مكان في بلاد بني محارب، يقال: إن المجنون كان يتعشّق ليلى فيه، وكهف بالأحساء يسمى كهف مجنون ليلى.

وسواء أكان المجنون أم لم يكن؛ فتوباد بني عامر، والغيل، وليلى التي عُرفت مدينة ليلى باسمها معروفة، والقصة المشهورة هي بتلك النواحي دائمة مادام التوباد.

التّوباد هو جبل أملس من أعلى على مستوى سطح الأرض في منحدر من الأرض؛ إذ يحفّ به وادي الغيل، ولا يكاد يظهر للعيان، ويقع على بُعد ٤كم شمال ليلى

المراجع

١- تاج العروس من جواهر القاموس، الزبيدي، طبعة حكومة الكويت.

٢- شعر خداش بن زهير العامري، صنعة: يحيى الجبوري، مجمع اللغة العربية - دمشق.

٣- صفة جزيرة العرب، الهمداني، تحقيق: محمد الأكوع، دار اليمامة، الرياض.

٤- طبقات الشعراء، ابن المعتز، تحقيق: عبدالستار فراج، دار المعارف، مصر.

٥- كتاب الأشباه والنظائر، الخالديان، تحقيق: السيد يوسف، لجنة التأليف والنشر، مصر.

٦- كتاب الأمالي، القالي، دار الحديث، بيروت، سنة ١٤٠٤هـ.

٧- كتاب الأمكنة والمياه والجبال والآثار، الإسكندري، أعدّه للنشر: حمد الجاسر، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ودارة الملك عبدالعزيز، الرياض، سنة ١٤٠٥هـ.

٨- كتاب الأغاني، الأصفهاني، دار الشعب، مصر.

٩- كتاب المنازل والديار، ابن منقذ، المكتب الإسلامي، سنة ١٣٨٥هـ.

١٠- كتاب الوحشيات، الطائي، حقّقه: الميمني، دار المعارف، مصر.

١١- لسان العرب، ابن منظور، تحقيق: عبدالله الكبير وزميلاه، دار المعارف، مصر.

١٢- المؤتلف والمختلف، الآمدي، تصحيح وتعليق: كرنكو، مكتبة القرشي.

١٣- التنبيه على أوهام أبي علي القالي في أماليه، دار الحديث، بيروت، سنة ١٤٠٤هـ.



قضية

العنف الأسري

وآثاره في شخصية الآباء والأبناء

أحمد محمد الزعبي
القنفذة - السعودية

وقد تأخّر علماء الاجتماع وعلماء النفس في دراسة العنف الأسري الذي لاحظه باحثو الخدمة الاجتماعية في القرن التاسع عشر، ولكنهم لم يكتبوا عن إيذاء الأطفال وسوء معاملتهم من جانب من يقومون برعايتهم. ففي عام ١٩٤٦م لاحظ أطباء الأطفال كسوراً في عظام الأطفال ناتجة من الأشخاص القائمين على رعايتهم. وفي عام١٩٦٢ نشر الطبيب كامب (C. H. Kempe) وزملاؤه مقالة بعنوان: (متلازمة الطفل المنهك ضرباً) ساعدت على لفت انتباه الأطباء وغيرهم من المهتمين إلى مشكلة إيذاء الطفل. أما العنف الموجّه ضد النساء، خصوصاً الزوجة، فلم يحظَ بالاهتمام الكافي حتى عام ١٩٧٠م؛ لأن الموضوع يعدّ مشكلة أسرية تُحاط بكثير من السرية والكتمان.

فالعنف الأسري هو من أشكال العنف الأكثر قبولاً من المجتمع والأكثر انتشاراً، وتتعرّض له نساء ينتمين إلى كل الطبقات الاجتماعية والأجناس والديانات والفئات العمرية على أيدي رجال يشاركونهن في حياتهن (مكي وعجم، ٢٠٠٨م).

وإن كان العنف الأسري يبدو أقلّ حدةً من غيره من أشكال العنف السائدة إلا أنه أكثر خطورةً على الفرد والمجتمع: فهو يهدّد أمن الأسرة والسلام الاجتماعي. وتكمن خطورة العنف الأسري في أن نتائجه غير مباشرة؛ بسبب ما يحدثه من خلل في نسق القيم، واهتزاز في نمط الشخصية، خصوصاً عند الأطفال؛ مما يؤدي في النهاية - على المدى البعيد - إلى إيجاد أشكال مشوّهة من العلاقات والسلوك، وأنماط من الشخصية مهتزّة نفسياً وعصبياً، وهذا ما يؤدي إلى إعادة إنتاج العنف، سواء داخل الأسرة أم في غيرها من المؤسسات الاجتماعية (عبدالوهاب ٢٠٠٠م).

لذلك يمكن القول: إن العنف والعدوان ظاهرتان عالميتان لا تقتصران على دولة من الدول، ولا فئة من فئات المجتمع، بل هو سلوك شائع نجده عند جميع الفئات العمرية، مع اختلاف حدّته من مكان إلى آخر، ومن شخص إلى آخر. كما ينتشر العنف في محيط الأسرة التي تعدّ نواة المجتمع، وأولى الجماعات التي يعيش فيها الفرد، والبيئة الرئيسة التي ترتسم من خلالها شخصية الطفل في سوائها واضطرابها، وذلك من خلال أساليب التنشئة الوالدية التي تتم فيها. فقد أكدت الدراسات أن الأسرة تشكّل مصدر الأمن والأمان للفرد؛ لأنها تمثّل مصدر خبرات الرضا عند الفرد؛ إذ يشبع من خلالها

عرفت المجتمعات الإنسانية العنف منذ القدم، ويدلّ على ذلك قتل (قابيل) أخاه (هابيل). ولكن ظاهرة العنف تزايدت في العقدين الأخيرين من القرن العشرين وبداية القرن الحادي والعشرين، وأخذت طابعاً جديداً يتجاوز القدرة على ممارسة الظلم والقهر، وأصبحت تميّز طابع العلاقات الاجتماعية وأنماط التفاعل القائمة بين الأفراد والجماعات في الأسرة والمجتمع. ومما ساعد على انتشار هذه الظاهرة الواقع الاقتصادي المتدنّي لدى كثير من الأسر في المجتمعات النامية، التي من شأنها أن تهيّئ المناخ للممارسات العنيفة على المستوى الاجتماعي.

معظم حاجاته، كما تمثّل الشكل الأول للاستقرار والاتصال في الحياة.

وتشير دراسة كل من حزين (١٩٨٤م) وراتر (١٩٩١م) إلى أن الأجواء الأسرية المشحونة بالتوتر والصراع تعدّ بيئةً مناسبةً للإصابة بالأمراض النفسية والعقلية والسلوكية، وتترك آثاراً مدمرة في نفسية الفرد (غانم، ٢٠٠٧م، ص١٤٥).

كما تؤكد دراسة (Wisdom 1989) و(محمد، ١٩٨٨م) أن الإساءة والإهمال اللذين يتعرّض لهما الطفل داخل الأسرة يعدّان البداية الدافعة إلى الانخراط في العنف والسلوك الإجرامي، وأن افتقاد مشاعر الحب والودّ والأمان لدى أفراد الأسرة يؤدي إلى شيوع عدد من السلوكيات التخريبية داخل الأسرة؛ مما يؤدي إلى اختلال المعايير داخل المجتمع. ويشير مكي وعجم (٢٠٠٨م) إلى أن العنف الذي يصدر عن الجماعات، ومنها جماعة الأسرة، لا بد من أن يؤثّر في العنف الشخصي بشكل مباشر؛ فالعنف الذي يصدر عن الذات تجاه الآخر يؤدي إلى تعزيز نزعة العنف لدى الفرد، ونقل ممارسته إلى المجال المجتمعي العام أو إلى المستوى العالمي. فالعنف هو استجابة للإحباط الناتج من الحرمان، والإحباط الناتج من الحرمان المادي أشدّ قسوةً من الإحباط الناتج من الحرمان المعنوي؛ لأنه يؤدي إلى الإيذاء الجسدي للشخص المُعتدَى عليه (الزوجة مثلاً) من قبل الشخص المُعتدي (الزوج مثلاً)، الذي يفتقد الموارد المادية التي تحقّق التوقعات المعيارية ومسؤولياته تجاه أفراد أسرته. فإذا كان الزوج غير قادر على مواجهة توقعات الدور؛ بسبب انخفاض مستوى تعليمه ومكانته المهنية ودخله، أو لأنه ذو مكانة اجتماعية منخفضة عن زوجته، فإن الضغوط والإحباطات قد تدفعه إلى استخدام العنف مع أفراد أسرته، خصوصاً مع وجود معايير تسمح بأن تكون الزوجة هدفاً مشروعاً يصبّ عليه جام غضبه، وينفس فيه عن إحباطاته (حلمي، ١٩٩٩م). والعنف مستويات مختلفة، يبدأ بالعنف اللفظي الذي يتمثّل في السبّ والشتم والتوبيخ، ثم العنف البدني الذي يتمثّل في الضرب والركل والتعدّي على الآخرين، ثم العنف الضمني الذي يتمثّل في التفكير في القتل، والكيد بالعدوان على الآخرين أو على ممتلكاتهم بالقوة.

تعريف العنف الأسري

تعدّ الأسرة أول مجالات التفاعل اليومي، وأكثرها ألفةً بالنسبة إلى الفرد؛ فهي المؤسسة الاجتماعية الوحيدة التي يتفاعل فيها الفرد بحرية وتلقائية، كما أنها من أكثر المجالات التي يظهر فيها العنف الأسري؛ فقد ذكر إبراهيم (٢٠٠٨م، ص٢٨٥) أن الجرائم المرتكبة في الأسرة تزيد على (٥٠٪) من المجموع الكلي لجرائم العنف. ويُعرَّف العنف في (لسان العرب) بأنه «الخرق بالأمر، وقلة الرفق به، وهو ضد الرفق. وأعنف الشيء: أخذه بشدة. والتعنيف



العنف الأسري أكثر خطورة على الفرد والمجتمع من أشكال العنف الأخرى



هو التقريع واللوم» (ابن منظور، مادة: عنف). ويعرّف مكي وعجم (٢٠٠٨م، ص٨) العنف بأنه «كل أشكال السلوك التي تكسر التفاعل التلقائي في موقف اجتماعي يسلك فيه أحد الفاعلين بشكل يثير استجابة غاضبة أو عنيفة من قبل الفاعل الآخر. ويتحول فيه بقية الفاعلين إلى ضحايا لموقف العنف». أما جيلز وشتراوس (١٩٧٩م) فيعرّفان العنف بأنه «سلوك يتم تنفيذه مع توفر القصد بإحداث ضرر جسدي لشخص آخر» (حلمي، ١٩٩٩م، ص٨٨).

أما العنف الأسري فيعرّفه إبراهيم (٢٠٠٨م، ص٣٠٠) بأنه «كل فعل يصدر عن أحد أو بعض أو كلّ أعضاء النسق الأسري نحو بعضهم بعضاً أو نحو الآخرين بهدف إلحاق الأذى والضرر المادي أو المالي أو المعنوي بطريقة مباشرة أو غير مباشرة وبشكل واضح أو مستتر مع توافر عنصر القصد وممارسة القوة لإلحاق الأذى بالمستهدفين من العنف أو بأيّ من رموزهم ومتعلقاتهم».

ويعرّف مكي وعجم (٢٠٠٨م. ٩٠) العنف الأسري بأنه «كل عنف يقع في إطار العائلة ومن قبل أحد أفراد العائلة (كالأب، والأخ. والأكبر) بما له من سلطة أو ولاية أو علاقة بالمعنَّف».

ويعرّف الكاتب العنف الأسري بأنه «كلّ سلوك يصدر عن أحد أفراد الأسرة بشكل مباشر أو غير مباشر بقصد إلحاق الأذى الجسدي أو النفسي بأحد أفراد الأسرة ذكراً كان أم أنثى بصورة غير مشروعة أو غير مطابقة للقانون».

وبناءً على ذلك، يمتدّ العنف الأسري في بلدان العالم الثالث بشكليه المادي والمعنوي ليشمل إضافةً إلى الصراع بين الرجل والمرأة من خلال العلاقة الزوجية الأطفال والإخوة والأخوات والأبناء والآباء: فكل فعل يمارسه الرجال في الأسرة، سواء أكان شتماً، أم ضرباً، أم تحرُّشاً جنسياً، أم استهزاءً بالمرأة، أم اغتصاباً لها وإجبارها على فعل ما لا تريد، أم حرمانها من حقوقها، يعدّ عنفاً ضدها. لذلك فإن أكثر ما يهدد النساء هم الرجال الذين تربطهم بهنّ صلة قرابة، وليس الغرباء، وغالباً ما يكونون من أفراد الأسرة أو الأزواج.

مظاهر العنف الأسري

يظهر العنف الأسري في مظاهر كثيرة، أهمها:

- العنف الموجّه ضد النساء:

ترى المجتمعات العربية أن ما يحصل داخل الأسرة يجب أن يبقى سراً؛ فهو محاولة للتغطية وإنكار وجود العنف. فكم من الزوجات تعرّضن للإهانة والضرب والشتم والاغتصاب من قبل أزواجهن، ولم يتحدثن عنه، وعشن حياتهن صابرات، ولكن ذليلات لا حول لهن ولا قوة. وكم من الفتيات تعرّضن للضرب والإهانة بحجة التربية، وتعرّضن للاغتصاب والتحرّش

تزايدت ظاهرة العنف في العقدين الأخيرين من القرن العشرين وبداية القرن الحادي والعشرين، وأخذت طابعاً جديداً يتجاوز القدرة على ممارسة الظلم والقهر



الجنسي. واختبأن وراء الصمت والخجل: خوفاً من أن يصبحن هنّ الجانيات (مكي وعجم، ٢٠٠٨م).

لذلك يتمثّل العنف ضد النساء في ممارسة سلوك القسوة، والشتم، والتهديد، والاستهزاء، والازدراء، والتدخّل في شؤونهن الخاصة، وحرمانهن من الحرية. وإجبارهن على فعل ما لا يرغبن فيه، وحرمانهن من حقوقهن. وإجبارهن على تقديم الخدمات إلى جميع أفراد العائلة وضيوفهم، واغتصابهن جنسياً.

أما الدراسات الخاصة بالعنف ضد النساء، خصوصاً الزوجة، فقد بدأت بدراسة النساء المرتكبات الجرائم والمودعات في السجون، وكذلك الزوجات الباحثات عن مأوى نتيجة ضرب الأزواج. وأكدت تلك الدراسات أن مرتكبات الجرائم من النساء كنّ هدفاً للإساءة البدنية المبرحة من قبل أزواجهن أو آبائهن. كما اهتمت بعض الدراسات بفحص تقارير الشرطة عن حوادث العنف داخل الأسرة. واتّضح منها أن نحو (٥١٪) من حالات العنف الأسري، خصوصاً الإساءة البدنية، تقع على الزوجات. كما اهتمت دراسات أخرى بالإساءة البدنية التي تقع على المرأة عامةً في المجتمعات المحلية، سواء داخل الأسرة أم خارجها، وأشارت إلى أن المرأة أكثر فئات المجتمع تعرّضاً للإساءة، خصوصاً داخل الأسرة.

فقد ذكر تقرير منظمة الصحة العالمية أنه من خلال الاطلاع على (٤٨) دراسة مسحية حول العالم اتّضح أن (١٠-٦٩٪) من النساء قد تعرّضن إلى عنف جسدي من قبل الشريك، وتعدّ المرأة هي الأكثر تعرّضاً للعنف الأسري، خصوصاً الزوجة، على الرغم من أن الموروثات الدينية والاجتماعية والثقافية أمرت باحترام المرأة وتقديرها كأمّ، وزوجة، وأخت، وابنة. لذلك يعدّ العنف ضد المرأة عامة، وضد الزوجة خاصة، نتيجة لتراكمات ثقافية وعرقية تتعلق بالقواعد الذكورية، على الرغم من التغيرات الحاصلة في أنماط السلوك الاجتماعي (أبو حجلة، ٢٠٠٤م).

كما ركّزت البحوث الاجتماعية والنفسية في العنف الموجّه ضد الزوجة، سواء أكان عنفاً جسدياً ضاراً من قبل الزوج أم عنفاً يتمثّل في الإيذاء النفسي والاغتصاب الجنسي (الزوجي)، وهذا يعني أن النساء هنّ الضحايا المفضّلات للعنف الأسري. وتشير الدراسات إلى أن الزوج الذي يمارس العنف تجاه الزوجة يشارك غالباً في أفعال أخرى إجرامية، منها: الجنوح، وتعاطي المخدرات (Simons etal. 1998). إضافةً إلى ذلك فإن الاعتداء الموجّه ضد أحد الزوجين سيتبعه اعتداء متبادل يتمثّل في التهديد اللفظي أو البكاء أو العويل الهستيري (من قبل الزوجة).



ويرى راتنر (Ratner, 1998) أن العنف ضد الزوجة يحدث في المواقف الآتية:

- غيرة الزوج من العلاقات الاجتماعية للزوجة برجل آخر.
- العلاقات المحدودة للزوجة بأفراد الأسرة والأصدقاء.
- الزوجة التي تتحكم في دخل الأسرة.
- الزوجة التي تفرض نفسها على المكان الذي توجد فيه.

من العوامل الاجتماعية التي تؤدي إلى زيادة العنف الأسري: التباين العمري الكبير بين الزوجين، والفروق الطبقية والتعليمية الواضحة بينهما، وتدخّل الأهل بطريقة خاطئة بين الزوجين، والزواج من زوجة أخرى من دون موافقة الأهل

- العنف الموجّه ضد الأطفال:

إن أول أشكال الإساءة في الأسرة هي الإساءة إلى الطفل؛ فقد لاقت اهتماماً كبيراً من قبل المختصين من أطباء، وأطباء نفسيين، وعلماء الاجتماع، وعلماء النفس؛ فقد سمّوا أنواع الإصابات غير الناتجة من حوادث بالإصابات البدنية، ثم الإصابات النفسية. كما تبيّن من خلال الدراسات الاجتماعية أن معظم الأطفال المودعين في مؤسسات الرعاية الاجتماعية قد عانوا في طفولتهم أنواعاً كثيرة من الإساءة، خصوصاً الإساءة البدنية. كما تبيّن أيضاً أن أمهاتهم وآباءهم كانوا هدفاً للإساءة في طفولتهم. وأن الآباء يلجؤون إلى ممارسة الإساءة على أطفالهم عندما يفشل الأطفال في تحقيق توقّعات الآباء (إبراهيم، ٢٠٠٨م). إضافةً إلى ذلك يتضمن العنف ضد الأطفال سوء التغذية، والفشل في النمو، والإيذاء الجنسي، والإهمال في تعليم الأطفال، والإهمال في علاجهم، والإيذاء العقلي، وعيشهم في ظل ظروف سيئة.

أشكال العنف الأسري

توجد عدة أشكال للعنف الأسري يمكن إدراجها في أربعة أقسام، هي:

- العنف اللفظي: ويتجلى في شكل تهديد، وشتم، وتهكّم، واستهزاء بغيرك، وتحريض، وإهانات لفظية ومعنوية، وتهديد لفظي بالانتقام.
- العنف المعنوي (النفسي): ويكون على شكل نظرات استهزاء، وسخرية، وازدراء، وتعبيرات وجهية متجهّمة، وجحوظ في العينين، وتقطيب في الجبين، وضرب الباب بقوة، وتكسير بعض الحاجات المنزلية، وغير ذلك.
- العنف المادي (الجسدي): ويكون على شكل اعتداء مباشر على الزوجة أو الأبناء بالضرب، والركل بالقدم، والطرد من المنزل، والاغتصاب الجنسي، والحرق، والطعن بالسكين، وصولاً إلى القتل بأشكاله المختلفة.
- العنف الجنسي: ويعدُّ من أخطر أنواع العنف الذي تتعرّض له المرأة داخل الأسرة، إلا أنه يبقى طيّ الكتمان؛ فالتحرّش الجنسي، والخطف، وهتك العرض، ومجامعة المرأة من قبل رجال الأسرة بأشكال شاذة (زوجة، أو ابنة، أو أخت، أو أم) من الأمور التي يتكرر حدوثها داخل الأسرة.

تزداد حالات العنف والعدوان كلما زاد الإحباط وتكرر حدوثه، فإذا مُنع الفرد من تحقيق أهدافه الضرورية شعر بالإحباط، وكان العنف والعدوان المباشر أو غير المباشر هو ردّ الفعل على مصدر الإحباط

العوامل المؤدية إلى العنف الأسري:

تؤدّي إلى العنف الأسري عوامل اجتماعية وثقافية واقتصادية ونفسية وعقلية وتشريعية. ويمكن إيضاح ذلك كما يأتي:

- العوامل البيولوجية:

تشير النظرية البيولوجية إلى أن العنف يرجع إلى عوامل بيولوجية في تكوين الإنسان؛ إذ يؤكد أصحاب هذه النظرية وجود بعض الهرمونات التي لها تأثير في الدافعية نحو العنف وترتبط بزيادة هرمون الذكورة (الأندروجين)، وهذا الهرمون هو السبب المباشر في حدوث العنف بدرجات كبيرة عند الرجال، ويزداد إفرازه بنسبة عالية في النهار، بينما ينخفض إفرازه في المساء (مليكة، ١٩٨٠م: ٩٠ في منيب وسليمان، ٢٠٠٧م).

كما تؤكد الدراسات التي أجريت على التوائم أنه إذا كان أحد التوائم مجرماً كان الآخر مجرماً بنسبة ٣/٤، بينما التوائم غير المتماثلة فتوجد بنسبة ١/٤. كما وجد السلوك العنيف أيضاً عند الأفراد الذين لديهم شذوذ كروموسومي؛ إذ يصبح عدد الكروموسومات (٤٧) كروموسوماً بدلاً من (٤٦)، ويكون شكل الكروموسوم السابع والأربعين على شكل (xyy) أو (xxy). كما وجد لدى ٦٥٪ منهم



شذوذ في تخطيط الدماغ، ويصاحب العنف لديهم اضطرابات عاطفية، ونقص في الذكاء (إبراهيم، ٢٠٠٨م).

- العوامل الاجتماعية:

إن التباين العمري الكبير بين الزوجين، والفروق الطبقية والتعليمية الواضحة بينهما، وأصدقاء السوء، وتدخّل الأهل بطريقة خاطئة بين الزوجين، والزواج من زوجة أخرى من دون موافقة الأهل، وعدم طاعة الزوج والخروج من دون إذن منه، ورفض الزوجة العودة إلى بيت الزوجية، ورفض الرجل من قبل أهل الفتاة، والشكّ والريبة، والاعتقاد في الخرافات، يؤدي إلى زيادة العنف الأسري. كما أن المجتمع الذي ترتفع فيه الضغوط الاجتماعية والاقتصادية (كالبطالة، وانخفاض الدخل، والمرض) يلجأ أفراده إلى استخدام العنف الأسري، خصوصاً الموجّه نحو المرأة.

من جانب آخر، فإن العنف الأسري يرتبط بالعوامل الاجتماعية والأيديولوجية التي تضع الرجال على قمة السلطة في الأسرة؛ مما يجعلهم يلجؤون إلى استخدام العنف ضد المرأة. ومن الأسباب المؤدية إلى العنف الأسري أساليب التنشئة الأسرية غير السوية: مثل: الإهمال، والتساهل، واللامبالاة، والتدليل الزائد، والقسوة، والضرب، والتشدّد، والحرمان من الحب والمودة داخل الأسرة، والمغالاة في الإنفاق المادي على الأبناء. كما وُجد أيضاً أن برامج التلفزيون، خصوصاً أفلام الرسوم المتحركة التي يسودها العنف، لها تأثير واضح في السلوك العدواني لدى الأطفال. فهي تدفعهم إلى تقليد حركات العنف وسلوكه. كما أن ترك المجال مفتوحاً لرؤية الأبناء وسائل الإعلام المختلفة (تلفزيون، وإنترنت، وغير ذلك)، وما تبثّه من مواد عنيفة مدمّرة للقيم الدينية والأخلاقية، تأثير خطير في سلوك الأبناء داخل الأسرة وخارجها.

- العوامل النفسية:

إن الشعور بالحرمان النفسي، أو إهمال أحد الزوجين الآخر، أو عدم الجدية في توجيه الأبناء وتربيتهم، والمبالغة في تدليل الأبناء أو حرمانهم أو إهمالهم، أو زيادة مستوى الطموح الفردي من دون مراعاة متطلبات الأسرة، كل ذلك من شأنه أن يؤدي إلى زيادة انتشار حالات العنف الأسري. كما أرجع فرويد العنف إلى الشعور بالذنب ليس بعد ممارسة العنف وإنما قبل ذلك؛ أي: إلى دوافع ممارسة العنف. كما تعزو (الفرويدية الحديثة) ممارسة العنف إلى الصراعات الداخلية والمشكلات الانفعالية بين الأزواج وبين الآباء والأبناء. كما أن فقدان الأبناء مشاعر الحب والعطف والحنان من قبل والديهم، خصوصاً في السنوات الأولى من حياتهم، يجعلهم يشعرون بالعدوان والكراهية نحو والديهم ونحو الآخرين، كما يشعرون بالاغتراب وعدم الأمن والأمان داخل الأسرة، ويفقدون الثقة بأنفسهم وبالآخرين من حولهم. كما تزداد حالات العنف عند الأبناء كأسلوب للتعبير عن الاستقلالية، وجذب الانتباه، وكسب احترام رفاقهم المناظرين لهم في العمر، وكذلك نتيجة الشعور بالنقص في القدرات، وكرد فعل لفرص ضائعة منهم في المجتمع (منيب وسليمان، ٢٠٠٧م).

من جهة أخرى، تزداد حالات العنف والعدوان كلما زاد الإحباط وتكرر حدوثه، فإذا مُنع الفرد من تحقيق أهدافه الضرورية شعر بالإحباط، وكان العنف والعدوان المباشر أو غير المباشر هو ردّ الفعل على مصدر الإحباط؛ لذلك تختلف شدة العنف باختلاف شدة الإحباط الذي يعانيه الفرد. ويرى عكاشة (١٩٩٢م) أن الإحباط إن لم يؤدِّ في معظم الظروف إلى العنف فإن كل عنف يسبقه موقف محبط. ويذكر مكلفين وغروس (٢٠٠٢م) أن الإحباط يؤدي إلى استجابة عدوانية، ولكن هذه الاستجابة قد لا تتجه نحو مصدر الإحباط بشكل دائم، بل قد تتجه إلى هدف سهل المنال؛ مثل كبش الفداء (الأحمد، ٢٠٠٤م: ١٤٧). كما يتعلم الفرد سلوك العنف عن طريق معايشته هذا السلوك؛ فالطفل الذي يشهد والديه يمارس كلّ منهما هذا السلوك تجاه الآخر، أو أن الطفل ذاته كان هدفاً للإساءة البدنية، يلجأ إلى العنف عادةً.

الإساءة والإهمال اللذان يتعرّض لهما الطفل داخل الأسرة يعدّان البداية الدافعة إلى الانخراط في العنف والسلوك الإجرامي





للشخص العنيف سمات حددها العلماء

ومن أبرز السمات التي تميّز الشخص الذي يمارس العنف ضد أحد أفراد الأسرة أنه شخص حاقد، ولا يحترم حرية الآخرين، كما أنه قد حُرم في طفولته من حريته الشخصية، ومن حرية اتخاذ القرار؛ مما يجعله يقوم بسلب حرية الآخرين كما سُلبت منه حريته، أو أنه اعتاد الحصول على ما يريد وامتلاك كل شيء؛ لذلك يميل إلى حيازة حرية الآخرين والسيطرة التامة عليهم.

أما سمات الشخصية المضطهدة، فتكون عادةً شخصية ضعيفة اعتادت أن يملي عليها الناس أفعالهم وأقوالهم، خصوصاً إذا كان الزوج هو الشخص الضاغط (المعنِّف)، سواء أكان ذلك مادياً أم معنوياً. فضلاً عن ذلك، فإن زيادة مستوى ضغوط الحياة التي يعانيها الأطفال والمراهقون داخل الأسرة (كأساليب التربية القاسية، وتوقّعات الوالدين غير الواقعية)، تجعلهم يلجؤون إلى العنف، خصوصاً العنف البدني.

- العوامل الاقتصادية:

تزداد حالات العنف الأسري في حالات تدهور مستويات المعيشة للمواطنين، وضعف قدرة الرجل على الإنفاق، واضطرار الزوج إلى العمل خارج وطنه، أو خروج الزوجين معاً للعمل مدداً طويلة، وترك الأبناء من دون رعاية كافية ومناسبة. كما تسهم البطالة، وقلة فرص العمل، والعجز عن مواجهة تكاليف المعيشة وتكاليف الزواج بالنسبة إلى الشباب في زيادة حوادث العنف الأسري.

- العوامل الثقافية:

ينطوي دور الفتاة في ظل الثقافة السائدة في مجتمعات العالم الثالث على أنها زوجة وربة منزل، وإن سمحت لها هذه الثقافة بالتعلم والعمل فمن أجل تحسين فرصها في الزواج؛ لذلك تحرص الأسرة على إعداد الفتاة لأداء دورها في المنزل، وتنمي أمها منذ الصغر استعدادها لأداء دور الزوجة المطيعة والخاضعة للزوج من دون أيّ اعتراض على سلوكه أو آرائه حتى ولو كانت خاطئة؛ مما يشعرها بالقهر، وتدني مفهوم الذات، والشعور بالنقص. ويمكن ملاحظة ذلك في كثير من الأمثال الشعبية؛ مثل: شاوروهن وخالفوهن، أم الغلام تستحقّ الإكرام، زواج البنت سترة، همّ البنات إلى الممات، وغيرها. كما أنه لا تزال بعض الموروثات الاجتماعية، خصوصاً في الأرياف، تنتقص من قيمة المرأة؛ إذ تُعامل المرأة على أنها ضعيفة، وعليها الخضوع للرجل، كما أن مشاورة المرأة انتقاص لرجولة الزوج، وأن الرجل هو القادر على إخضاع المرأة والسيطرة عليها في كل شؤون حياتها. لذلك فإن الشتم والإهانة وحرمانها من الحقوق أمور لا تجوز مناقشتها أو الاعتراض عليها.

- العوامل التشريعية:

يزداد العنف الأسري في حالة سنّ تشريعات غير عادلة، وبطء إجراء التقاضي وردّ الحقوق إلى أصحابها. كما أن غياب الوازع الديني، والفهم الخاطئ لقواعد الدين، والأسلوب الانتقائي التجزيئي الذي يستبعد ما من شأنه تحقيق المساواة بين الرجل والمرأة ويرفع من شأنها ويدفع بها إلى التحرر والاستقلال، وعدم مراعاة الوالدين شرع الله في توزيع التركات والميراث بين الورثة، تؤدي إلى زيادة العنف الأسري.

من جانب آخر، فإن الاختلاط بين الأسر من دون ضوابط شرعية من شأنه أن يؤدي إلى الانحراف الأخلاقي لبعض الزوجات والأبناء؛ مما يسهل عمليات العنف الأسري.

آثار العنف الأسري في شخصية الآباء والأبناء

- الآثار الصحية:

تترتب على العنف الأسري آثار صحية تنعكس على صحة المرأة

وجسدها، وقد يسبّب لها الموت أحياناً. وحدوث بعض التشوهات والعاهات الدائمة، والحروق المشوهة، وغير ذلك. ويذكر خبراء الرعاية الصحية أن العنف الأسري قد يكون سبباً لكثير من الأمراض العضوية؛ مثل: ارتفاع الضغط الشرياني، والسكري، والأكزيما، وغيرها من الأمراض (الداهري، ٢٠٠٨م).

- الآثار النفسية:

يهدّد العنف الأسري الأمن النفسي والاجتماعي للأسرة؛ فالخبرات المؤلمة التي تتعرض لها الأسرة تؤدي إلى فتور العلاقة الدافئة بين الزوجين، وتدهور في الصحة النفسية للأم بشكل خاص، والأب والأبناء بشكل عام، واحتمال تعرّضهم للاضطرابات النفسية (قلق، واكتئاب، ووساوس متسلطة، وغير ذلك)، كما ينعكس أيضاً على تهديد الأمن النفسي للأبناء، ويقوّض تقدير الذات عند الأسرة. كما أن مشاعر العجز والإحباط التي يشعر بها الأبناء تؤدي إلى ضعف قدرتهم على التوافق النفسي والاجتماعي. كما أظهرت الدراسات (Fortin, 2002:45) أن آثار العنف الأسري الموجّه ضد الأطفال الصغار تظهر بشكل مباشر نتيجة وجودهم مع ذويهم؛ إذ يعانون بوادر الاضطراب النفسي؛ كالقلق، والحزن، والشعور بالتعاسة، والعدوانية، والحركة الزائدة، والكذب، والعناد، وعدم الطاعة، والشعور بالذنب نتيجة عدم تمكّنهم من القيام بأيّ عمل تدخّلي، ثم يتحول إلى خوف دائم على الأم من أن تُقتل، ويصبحون من دون أمهات. وعند بلوغ المراهقة تظهر لدى الأبناء سلوكيات عدوانية، والميل إلى تجريح الآخر، والميل إلى الانتحار. كما يميل الأبناء الذكور إلى تقليد والدهم، والتماهي معه عبر سلوك عنيف تجاه النساء. أما الفتاة فينمو لديها استهتار ومواقف سلبية تجاه الزواج، كما تصبح مؤهّلة في تكوينها النفسي أن تعيش حياتها الحميمة تبعاً لعلاقات عنيفة (مكي وعجم، ٢٠٠٨م). كما تذكر حلمي (١٩٩٩م) في دراستها أن الزوجات اللاتي تعرّضن للعنف الجسدي يشتكين من الصداع، والحساسية، وآلام الظهر، وعسر الهضم. كما أنهن أكثر عرضةً للأمراض النفسية والعقلية؛ مثل: القلق، والاكتئاب، والرغبة في الانتحار، وعدم تحقيق الذات.

- الآثار الاجتماعية:

كما يؤدي العنف الأسري إلى تفكّك كيان الأسرة وانهيارها،

العنف ضد الأطفال يسبب لهم القلق والحزن والعدوانية





وسيادة الكراهية والعدوان، وانعدام الثقة والاحترام المتبادل. إضافةً إلى إمكانية حدوث الانحراف عند أفرادها، كما ينعكس في أفعال عنيفة ضد الأبناء (الأحمد، ٢٠٠١م). كما أوضحت الدراسات التتبّعية أن الأطفال المعرّضين للعنف الأسري كانت لديهم انحرافات سلوكية، ثم أصبحوا أحداثاً وانخرطوا في مجال الجريمة. وقد اتّضح أن العلاقات داخل الأسرة التي تقوم على العقاب البدني والعنف كانت وراء ذلك (حلمي، ١٩٩٩م).

ويذكر مكي وعجم (٢٠٠٨م) أن الممارسات العنيفة في المنزل تؤدي إلى أن يصبح الابن عدوانياً، والابنة منعزلة، وقد تصبح إماً عنيفة أو مهملة لأطفالها عندما تكبر. كما أوضحت الدراسة التي أجرتها حلمي (١٩٩٩م) أن العقاب البدني للأطفال يزيد من احتمال السلوك العدواني واللااجتماعي لديهم، وأن الأطفال الذين يتعرضون للعقاب البدني يتعلمون أن العنف يغيّر من السلوك. كما يشير ألبرت بندورا (Bandura, 1977) في نظريته (التعلّم الاجتماعي) إلى أن السلوك العدواني متعلّم من خلال التقليد والتعزيز والمشاهدة. لذلك فإن تعرّض الأطفال للعنف بأشكاله المختلفة يجعلهم يقومون بسلوكيات عدوانية بشكل مرتفع مع ألعابهم في حجرة الملاحظة؛ كالهجوم على الدمية، بالمقارنة مع الأطفال الذين لم يتعرّضوا للعنف (Otto, 1985). فالأطفال يكتسبون نماذج السلوكيات التي تتسم بالعنف من خلال ملاحظة سلوك العنف للكبار؛ أي أن الأطفال يتعلمون أعمال العنف عن طريق تقليد سلوك الكبار (Berkowit, 1993). كما تؤثر الجماعة أيضاً تأثيراً كبيراً في اكتساب سلوك العنف عن طريق تقديم النماذج العنيفة للأطفال فيقلدونها، أو عن طريق تعزيز هذا السلوك بمجرد حدوثه (متيب وسليمان، ٢٠٠٧م). فمشاهدة الأطفال العنف الأسري، سواء نحو الزوجة أو العقاب البدني للأطفال، يعلّمهم أن ضرب الآخرين (الذين نحبهم وتربطنا بهم علاقات حميمة) أمر مشروع وفعال؛ فالأولاد الذين يشاهدون الأب وهو يعنّف الأم قد يعنّفونها هم بدورهم، كما يعنّفون زوجاتهم وبناتهم في المستقبل، وقد يؤدي ذلك إلى ممارستهم العنف مع آبائهم كبار السن أيضاً.

من جانب آخر، قد يؤدي العنف الأسري إلى حدوث الطلاق بين الزوجين، وحرمان الأطفال من أحد والديهم أو كليهما، وما ينجم عن ذلك من فقدانهم الحب والحنان والرعاية الوالدية. وهذا الحرمان من أحد الوالدين أو كليهما ينعكس بآثار ضارة في شخصية الأبناء، فيعيق نموهم العقلي والنفسي والاجتماعي، ويضعف من قدرتهم على التواصل والتفاعل مع الآخرين، ويشعرهم بالإحباط والعجز، ويضعف من دافعيتهم للتعلم والتحصيل.

- الآثار الاقتصادية

للعنف الأسري آثار اقتصادية سيئة كثيرة، منها:

- ضعف قدرة المرأة على تطوير ذاتها وقدراتها ومهنتها وتعليمها، وهدر طاقاتها الإنتاجية من خلال السماح لها فقط بالعمل في أعمال هامشية، أو عدم السماح لها بمواصلة تعليمها، وتزويجها في سن مبكرة؛ مما ينعكس سلباً على برامج التنمية الاقتصادية والاجتماعية.
- إعاقة عجلة النمو الاقتصادي للمجتمع؛ لأن العنف ضد المرأة وإعاقتها من ممارسة حقها في العمل أو التعليم يؤدي إلى دفع عدد من العمال غير المهرة من ذوي التعليم والتأهيل المتدني إلى سوق العمل، كما يتيح الفرصة لعمالة الأطفال؛ مما يؤثر في صحتهم الجسدية والعقلية والنفسية والاجتماعية.
- تدنّي نسبة مشاركة المرأة في العمل والحياة الاقتصادية والإنتاجية، ويحدّ من إمكانية النساء من الاستفادة من الفرص المتاحة لهن، ويفوّت عليهن فرص الاستفادة من الحصول على وظائف مهمة من شأنها الإسهام في عملية التنمية؛ مما ينعكس سلباً على الأسرة وعلى دخلها المادي، ويلحق الضرر بالمجتمع من قلة مشاركة المرأة في التنمية والتطور (الداهري، ٢٠٠٨م).

تترتب على العنف الأسري آثار صحية تنعكس على صحة المرأة وجسدها، وقد يسبّب لها الموت أحياناً، وحدوث بعض التشوهات والعاهات الدائمة



دور الإرشاد الزواجي والأسري في الوقاية من العنف الأسري

يمكن للإرشاد الزواجي والأسري أداء دور فاعل في الوقاية من العنف الأسري والحدّ منه قدر الإمكان، وذلك من خلال:

- وضع برامج تربوية إرشادية خاصة من شأنها تأهيل الفتاة لحياة أسرية صحية بعد الزواج، وتعزيز ثقتها بنفسها، واحترامها لذاتها.
- تقديم برامج إرشادية ترمي إلى تعليم الأبناء صغاراً وكباراً كيفية حل مشكلاتهم بالطرائق السلمية بعيداً عن العنف بكل أشكاله، وتعليمهم كيفية الابتعاد عن الأفكار التقليدية التي تمجّد الذكورة، وتحرّض على ممارسة العنف ضد المرأة.
- وضع برامج إرشادية تهدف إلى تعزيز ثقافة الحوار واحترام الآخر داخل الأسرة، خصوصاً الشباب الذين هم في سنّ الزواج.
- تضمين المناهج الدراسية مفاهيم تعزّز من ثقافة تبادل الأدوار والحوار داخل الأسرة، وكيفية حلّ النزاعات بين البنين والبنات بالطرائق السلمية عن طريق الأنشطة الصيفية.
- تفعيل دور وسائل الإعلام المختلفة بنشر الوعي عن العنف الأسري وأخطاره من خلال استضافة المختصّين بالإرشاد النفسي والإرشاد الزواجي.
- إصدار نصوص قانونية تجرّم العنف الأسري، وتعاقب عليه بعقوبات صارمة.
- إجراء دراسات ميدانية حول العنف الأسري لتحديد أسبابه وأنواعه؛ تمهيداً لوضع الإجراءات العلاجية المناسبة.

العنف مستويات مختلفة، يبدأ بالعنف اللفظي الذي يتمثّل في السبّ والشتم والتوبيخ، ثم العنف البدني الذي يتمثّل في الضرب والركل والتعدّي على الآخرين، ثم العنف الضمني الذي يتمثّل في التفكير في القتل

كيفية مواجهة العنف الأسري

تعدّ الأسرة هي المسؤولة عن سلوكيات أبنائها غير السوية، وعن قيمهم الأخلاقية والدينية، وما يصدر عنهم من سلوكيات عنيفة نحو الأفراد والجماعات والمؤسسات والمنشآت في المجتمع. ومن أجل أن تضطلع الأسرة ومؤسسات التعليم بمسؤولياتها، والحد من ظاهرة العنف الأسري، لابد من عمل ما يأتي:

- توعية الآباء والأبناء على حدّ سواء بمخاطر العنف داخل الأسرة وخارجها، وتوجيههم إلى اكتساب مهارات التفاعل الأسري السليم، وتحميل المسؤولية لكل فرد فيها.
- تأكيد دور الأسرة في تربية الأبناء تربيةً سليمةً من خلال غرس القيم الدينية والأخلاقية في ضوء المتغيرات الثقافية وتحديات العولمة في الوقت الحاضر؛ إذ يتوجب على الوالدين أن يعملا على غرس قيم الخير والصلاح في نفوس أبنائهم.
- تطوير احترام الذات لدى المرأة، وتعزيز ثقتها بنفسها، وتشجيعها على التعبير عن احتياجاتها ورغباتها وكل ما يثير غضبها، وحقها في السعادة والفرح والاستقلالية.
- ضرورة تحمّل الأسرة مسؤولياتها من خلال مراقبتها سلوكيات أبنائها، ومتابعتهم، وتزويدهم بالتوجيهات والإرشادات التربوية السليمة، وإرساء قواعد التربية ضد العنف عامةً، والعنف الأسري خاصةً، لدى الفئات الاجتماعية كلها.
- أن تعمل الأسرة على إشباع حاجات أبنائها النفسية والاجتماعية؛ كالتقبّل، والشعور بالأمن والأمان داخل الأسرة، وتقدير الذات؛ مما يقلّل من سلوكيات العنف لديهم، وكراهيتهم أنفسهم والآخرين.
- تدريب الأسرة على كيفية التواصل الإيجابي بين أفرادها، خصوصاً بين الزوجين وبين الآباء والأبناء؛ إذ إن ذلك هو خير سبيل لتجنّب العنف الأسري، فمن يتعلم العنف، ويتدرب على ممارسته، يتعلم كيفية التواصل ومدّ الجسور بين أعضاء الأسرة.
- أن تعمل الأسرة على فهم دوافع السلوك العدواني عند الطفل، والوقوف منه موقف المتفهّم الهادئ؛ إذ يتوجب عليها قبل أن تمنع الطفل من عمل شيء ما أن تهيّئ له عملاً إيجابياً بدلاً من الأوامر والنواهي السلبية، ومثال ذلك أن نقول له: (من الأفضل أن تفعل هذا.. تعالَ وافعل كذا.. جميل أن يكون لديك هذا الشيء)، بدلاً من أن نقول له: (لا تفعل هذا.. إيّاك أن تفعل ما فعلت.. لا تقترب من هذا المكان). ومن الضروري أيضاً تعزيز السلوك المرغوب فيه عند الطفل، وإظهار الرضا في كل مرة يقوم فيها الطفل بالتعامل مع الآخرين (في اللعب مثلاً) من دون أن يظهر عنده العدوان أو المشاجرة معهم.
- أن يقوم الآباء بنهي أبنائهم عن السلوك العدواني، وتشجيعهم على السلوك الهادئ السليم، ومعاملة الآخرين بالحسنى والعطف، من دون أن نعوّدهم الخنوع أو الفجور؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً﴾.
- تربية الأطفال تربيةً متوازنةً تقوم على الأخذ والعطاء، وتنمية القيم الإيجابية لديهم ليدركوا معناها فيما بعد. ولهذا يتوجّب على الآباء والمربّين عدم اللجوء إلى العدوان والغضب الشديد عندما يخطئ الطفل، والتحكم في الذات قدر الإمكان، فالطفل يقلّد والديه والكبار من حوله في سلوكهم العدواني؛ فقد أظهرت الدراسات أن الآباء ذوي الاتجاهات العدوانية لا يتقبّلون الأبناء، ولا يمنحونهم العطف والقبول، ويميلون إلى استخدام العقاب البدني في ضبط سلوك أبنائهم (الزعبي، ٢٠٠٥م). ويرى فيرجيلد (Fairchild, 1977) وسيرز (Sears, 1953) أن استمرار المزج بين ضعف العطف الأبوي والعقاب البدني القاسي مدة طويلة من الزمن يؤدي إلى العدوان، والتمرّد، وعدم تحمّل المسؤولية لدى الطفل (في شيفر وميلمان، ١٩٨٩م). كما تبيّن أيضاً وجود علاقة بين

> من أبرز السمات التي تميّز الشخص الذي يمارس العنف ضد أحد أفراد الأسرة أنه شخص حاقد، ولا يحترم حرية الآخرين، كما أنه قد حُرم في طفولته من حريته الشخصية





العنف هو السلوك المؤذي لأي إنسان

سلوك الطفل العدواني وعقاب الآباء على هذا السلوك: فقد ظهر أن الأطفال العدوانيين في المدارس ينالون عقاباً كثيراً من الأب في المنزل: فالعقاب لا يمنع الطفل من السلوك العدواني، بل يقوده إلى مزيد من العدوان نتيجة شعوره بالإحباط. ولهذا من الضروري الابتعاد عن عقاب الطفل جسدياً؛ لأن هذا النوع من العقاب يؤدي إلى تبلّد المشاعر الانفعالية لديه، كما أنه قد يألف مثل هذه العقوبة، فلا تعود تجدي معه كثيراً؛ مما يجعل هذه العقوبة عديمة المفعول.

- من الضروري إبعاد الطفل عن المواقف والخبرات التي توقعه في الإحباط، وتوفير فرص النجاح له ما أمكن؛ فالنجاح في القيام بالأعمال الموكلة إلى الطفل تعزّز من ثقته بنفسه، وتبعد عنه مشاعر النقص والإحباط. وفي حالة ظهور العدوان عند الطفل يجب عدم كبته؛ لأن ذلك يؤدي إلى نتائج نفسية وسلوكية غير مرغوب فيها)، كما يجب توجيهه إلى مسالك مقبولة اجتماعياً.
- العمل على توفير الأمن والاطمئنان النفسي للطفل في الأسرة والمدرسة؛ فالطفل الذي يعيش خبرات سارة وسعيدة يعكس سعادته على الآخرين من خلال سلوكه معهم. كما أن توفير علاقات قوامها المحبة والمساواة والتسامح والتعاون في جوّ أسري آمن من شأنه أن يبعد الطفل عن العدوان، ويقلّل منه في حالة وجوده.
- الإقلال ما أمكن من التعرّض لنماذج عدوانية؛ فالأطفال الذين يشاهدون تصرّفات عدوانية تزداد عندهم مثل هذه التصرفات، ويميلون إلى تقليد مثل هذه المشاهد؛ فمشاهد القتل والعراك التي يشاهدها الأطفال في التلفزيون تؤدي إلى إيقاظ الأحاسيس الفسيولوجية عند الطفل، وهذا من شأنه أن يؤدي إلى العدوان فيما بعد، خصوصاً إذا كان ما يُعرض من نماذج عدوانية يتوافق



مع أسلوب حياة الطفل وقيمه التي كوّنها في الأسرة والمجتمع المحيط (الزعبي، ٢٠٠٥م).

- التجاهل المتعمّد للسلوك العدواني، وتعزيز السلوك المرغوب فيه عند الطفل؛ إذ من الضروري أن يصاحب تعزيز السلوك المرغوب فيه عند الطفل تجاهل تصرّفاته العدوانية، خصوصاً إذا لم يترتب عليها إيذاء الآخرين. وتشير نتائج الدراسات إلى أنه من الممكن أن يخفض الراشدون استجابات العدوان اللفظية والجسدية عند الأطفال بشكل ظاهر عن طريق التجاهل المنظم للسلوك العدواني، وإبداء الاهتمام بالسلوك المرغوب فيه عندهم والعمل على تعزيزه (شيفر وميلمان، ١٩٨٩م).
- أن تعمل الأسرة والمدرسة على توفير الأنشطة الحركية المنظمة للطفل؛ فالطفل يمتلك طاقة زائدة، ويحتاج إلى الحركة والنشاط لتصريفها. ولهذا فإن توفير فرص اللعب للطفل، والرياضة التنافسية، من شأنهما أن يعملا على تصريف نزعاته العدوانية بشكل مقبول اجتماعياً (الزعبي، ٢٠٠٦م).
- أن يعمل المجتمع على الحدّ من ظاهرة البطالة بين الشباب من خلال توفير فرص العمل المناسبة لهم، وتشجيعهم على الكسب المشروع، وعدم الاتّكال على الآخرين.
- ضرورة توجيه الأبناء في الأسرة والمدرسة إلى كيفية قضاء أوقات الفراغ بما يعود عليهم وعلى أسرهم ومجتمعهم بالخير.
- عقد ندوات خاصة عن العنف الأسري يتم الإعداد لها وتنفيذها من قبل مختصّين بالإرشاد الأسري.

المراجع

- إبراهيم، أبو الحسن عبد الموجود (٢٠٠٨م)، ديناميات الانحراف والجريمة (التفسيرات- القضايا- الممارسة العامة)، الإسكندرية: المكتب الجامعي الحديث.
- أبو حجلة، همسة سمير (٢٠٠٤م)، العلاقة بين الرضا عن الزواج والعنف ضد الزوجة في قصبة الكرك، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة مؤتة.
- الأحمد، أمل (٢٠٠١م)، بحوث ودراسات في علم النفس، بيروت: مؤسسة الرسالة.
- الأحمد، أمل (٢٠٠٤م)، مشكلات وقضايا نفسية، بيروت: مؤسسة الرسالة.
- ابن منظور (١٩٥٧م)، لسان العرب، بيروت: بيروت للطباعة والنشر.
- حلمي، إجلال (١٩٩٩م)، العنف الأسري، القاهرة: دار قباء للطباعة والنشر.
- الداهري، صالح حسن (٢٠٠٨م)، أساسيات الإرشاد الزواجي والأسري، عمّان: دار صفا.
- الزعبي، أحمد محمد (٢٠٠٥م)، مشكلات الأطفال النفسية والسلوكية والدراسية، دمشق: دار الفكر.
- الزعبي، أحمد محمد (٢٠٠٦م)، الصحة النفسية والعلاج النفسي، الرياض: مكتبة الرشد.
- شيفر، شارلز؛ ميلمان، هوارد (١٩٨٩م)، مشكلات الأطفال والمراهقين وأساليب المساعدة فيها، ترجمة: نسيمة داود، ونزيه حمدي، عمّان.
- عبد الوهاب، ليلى (٢٠٠٠م)، العنف الأسري: الجريمة والعنف ضد المرأة، دمشق: دار المدى للثقافة والنشر.
- غانم، محمد حسن (٢٠٠٧م)، العنف الأسري: دراسة في سيكولوجية الجرائم الأسرية المنشورة في الصحف المصرية باستخدام تحليل المضمون، مجلة علم النفس، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، العدد ٧٣-٧٤، ص١٤٤-١٥٩.
- محمد، يوسف عبد الفتاح (١٩٨٨م)، الزواج من أجنبيات وأثره على أبناء الخليج العربي، بيروت: دار الفكر العربي.
- مكي، رجاء؛ عجم، سامي (٢٠٠٨م)، إشكالية العنف: العنف المشروع والعنف المدان، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر.
- منيب، تهاني؛ سليمان، عزة (٢٠٠٧م)، العنف لدى الشباب الجامعي، الرياض: جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية.

Berkowitz. L. (1993) .Aggression. its causes. consequences and control. New York: McGraw Hill.p.265295--

- Otto. Jarsen (1985).Alienation social apperception and ego structure .J .of consulting Psychology.Vol.19. P2122-.

- Ratner. P. (1998).Modeling acts of aggression and dominance as wife abuse and exploring their adverse health effects. J. Of Marriage and the Family. 60(May):p.453465-

- Simons. Et al. (1998).Socialization in the family of origin And mal dating violence .J. of Marriage and the Family. 60.Nov.P.467478-.

Wisdom. c.s. (1989).The cycle of violence. Science. vol.P. (244).

مذكرات رضيعة

«قصة حقيقية»

إلى تولين التي حرمها الإرهاب من حنان أمها

سناء شعلان

عمان - الأردن

«دعوني أعترف لكم بأنني لا أفهم جُلّ ما يحدث الآن، لكنّني أعرف شيئاً واحداً، هو أنني خائفة جداً، ووحيدة جداً، ولا أفهم لماذا تركتني ماما وحيدةً في هذا المكان.

كما أنني جائعة، أريد ولو قطرات من حليب ماما، لا أريد أياً من حليب تلك النسوة اللواتي يحاولن إرضاعي وهنّ باكيات، لماذا يبكين يا ترى؟ لعلّهن جائعات مثلي!!. لكن أليس لهنّ أمهات يرضعنهن؟ لعلّ أمهاتهن قد اختفين فجأة مثلما فعلت ماما. ليتني أستطيع الكلام، إذاً لسألت بابا سامر عن سبب اختفاء ماما، كم أشفق عليه كلما ضمّني إلى صدره باكياً!!. لعلّ ماما خاصمته، ولهذا السبب هو حزين، لكنّ ماما وبابا متحابان، فأنّى لهما أن يتخاصما؟! المهم أنني جائعة، ولا أطيق رائحة المكان، ورسغي يؤلمني جداً منذ أن سقطت من حضن ماما بعد أن أرضعتني آخر مرة لأصطدم بالأرض في حفل زفاف عمو أشرف وعروسه الجميلة ذات الثوب الأبيض الطويل. كان الحفل جميلاً جداً، الحقيقة أن ماما كانت أجمل الموجودين، عيناها الجميلتان كانتا تشعّان فرحاً وألقاً، وأنا كنت أتأمّلهما طويلاً قبل أن أنهل من حليبها الدافئ الذي يكاد يختلط برائحة عطرها الذي أميّزه من بين ألف رائحة. كنت أتابع مع ماما زفة العروسين عندما بدأت مفرقعات مخيفة بالانفجار، أنا أكره المفرقعات، لقد تسبّبت بتحطيم كلّ الأشياء الجميلة في المكان، وتسبّبت في وقوعي على الأرض، المفرقعات أخافت ماما، وأخافت الجميع، فناموا كلّهم كي لا يسمعوا صوتها، وتركوني مستلقيةً على الأرض أبكي وحيدة، ثم جاء رجل طيّب وحملني، ثم حملتني عروس أخرى تلبس الأبيض، ووضعتني في هذا السرير، ثم لا أعرف ماذا حدث بعد ذلك: لأنني نمتُ، ثم استيقظتُ مرات كثيرة، ثم نمتُ، ولم تأتِ ماما. وأنا الآن جائعة، وأريد ماما، وأريد إخوتي، هل تسمعني يا بابا؟.

أنا جائعة، وإذا لم تأتِ ماما حالاً سأشرع أبكي. يا إلهي، أنقذني مما أنا فيه. لا تقل لي يا بابا إنك ستشرع من جديد في البكاء، كلما اقتربت نحوي، وضممتني إليك، شرعتَ في البكاء، هذا لا يجوز، أنت يا بابا كبير، وأنا تولين الصغيرة التي عمرها ثلاثة أشهر، وأنا الجائعة، وأنا المريضة. إذاً يجب أن أبكي أنا، وتصمت أنت».

من جديد عادت تولين إلى نوبات البكاء الحادة التي تنتابها بين الفينة والأخرى، كانت في حضن والدها بعد أن رفضت بإصرار أن ترضع من كلّ المرضعات اللواتي تبرّعن حباً وكرامةً بإرضاعها بعد أن شاهدن صورها في التلفاز تبكي الطعام بعد مقتل أمها الشابة وجدها وجدتها لأمها في حوادث تفجير عمان المريعة. أخذت الأمهات الرأفة بها كلّ مأخذ، وتوافدن على المستشفى لإرضاعها، لكنها بقيت مصمّمةً على رفض المرضعات، وكانت حالتها في سوء؛ لأنها رضيعة صغيرة أضعف من أن تصمد أمام الجوع.

قال الأب محدّثاً فداء الصمادي التي جاءت متبرّعة بإرضاع تولين: «إنّ بقيت من دون طعام فستموت بلا شك، وستلحق بأمها الحبيبة».

قصة

«لا سمح الله، صدّقني إنني أشعر بأنها ستقبل بحليبي؛ فمنذ أن رأيت صورتها في التلفاز وحليبي قد ازداد تدفّقاً، عندها أدركت أن ما يحدث إشارة إلى أن الله قد جعل من حليبي نصيباً لتولين؛ لتكون شقيقةً لرضيعي ولابنتي الصغيرة».. قالت فداء بدموع أمّ حنون.

«أرجو أن تقبل بحليبك؛ فأنا لا أقوى على تحمّل صدمة موت تولين، أنا بحاجة إليها؛ فهي أجمل هدية من زوجتي الحبيبة. يا إلهي، كم تشبه زوجتي!!. كنت أنوي أن أذهب أنا وزوجتي لشراء عربة خاصة لتولين هذا الأسبوع، لكن العمل كان سبباً في تأجيل مخطّطنا الجميل. حتى هذا العرس المنكوب لم أستطع حضوره بسبب ظروف عملي، وقرّرت أنا وزوجتي أن تحضره هي مع عائلتها ومع تولين. ليتني كنت معهم، ليتني متّ ولم أبقَ وحيداً مع هذه المسكينة الصغيرة».. قال سامر وهو يشهق بالبكاء.

قالت فداء وهي تمسح دموعها على عجل، وتمدّ يديها إلى تولين لتحملها، ولتضمها إلى صدرها متأثرةً ببكاء الطفلة وبجراحها: «بل عليك أن تتماسك لأجل تولين؛ فأنتَ كلّ ما بقي لها من الدنيا».

«آه يا تولين!! أنت لا تعرفين يا حبيبتي أنك غدوت من دون أم، وبأب حطّمه الألم».. قال الأب بنبرة يتيم.

«إلى أين تأخذينني يا هذه؟! بابا سامر أنقذني، إلى أين تأخذني هذه المرأة؟ من تراها تكون؟ بابا أنقذني. رائحتها تشبه رائحة ماما، في عينيها عطف يشبه العطف الذي في عيني ماما، لكنني لا أريد أحداً، أريد ماما، لا أحد غير ماما».. صرخت تولين بصوت مكتوم.

تمسّد فداء على جبين تولين، وتدسّ ثديها في فم تولين التي تقبل به من دون تردّد، وتبدأ بالرضاعة بنهم وجوع، حتى من دون أخذ نفس، كأنها تخشى من أن تُحرم من الرضاع من جديد.

تفرح الممرضة التي تشهد منظراً مؤثّراً من الألفة والحنان بين تولين وفداء، وتيمّم راكضةً نحو الأب لتخبره بأن تولين قبلت أخيراً بمرضعة.

«يا إلهي، لمَ كلّ هذه الفوضى من جديد؟ إيّاكم أن تقولوا: إن هناك مفرقعات نارية من جديد؛ فأنا أكره كلّ المفرقعات؛ فهي من تسبّبت في نوم ماما، وهي من جعلت ماما تختفي. أنا جائعة، سامحيني يا ماما إن كنت قد رضعتُ من غيرك، لكنني جائعة جداً، وهذه المرأة تبدو طيبة؛ فصدرها دافئ، ويداها ناعمتان كيديك، ورائحتها تشبه رائحتك، لكنني بالتأكيد أحبّك أكثر، وأفضّل حليبك. ماما أنا أحبك، وأريد أن أقول إنني أنتظرك، لكن متى ستعودين؟!».

سريعاً ما داعب النوم جفني تولين التي استسلمت طائعةً له بين يدي فداء التي ضمّتها إلى صدرها. يد ابنتها الصغيرة مسّدت على رأس تولين، وقالت بفرح من وجد كنزاً: «أحقاً يا ماما أن هذه الصغيرة قد أصبحت أختاً لي ولأخي؟». أومأت فداء برأسها مؤكّدةً ذلك.

«مرحى، أخيراً أصبح لي أخت».. قالت الصغيرة وهي تقفز فرحاً في مكانها. ومن بعيد كان يراقبها والد تولين وهو متهالك على كرسيّ خشبيّ باكياً بصمت، ويقول كمن يحدّث نفسه: «كنتُ أحبّ زوجتي، لا يمكن أن أنساها، سأعيش على ذكراها ما حييت».

- «سأمرّ كلّ يوم على تولين لإرضاعها، وسوف أصحبها إلى بيتي للعناية بها، هذا بعد إذنك طبعاً».. قالت فداء بتحفظ وحذر.

- «كانت أمّ تولين كلّ حياتي».

- «سأعتني بها ليلاً، وفي النهار سأرسلها إلى الحضانة ذاتها التي أضع فيها طفلي إلى حين انتهاء دوامي في المدرسة».

- «أنا لن أرى أمّ تولين أبداً».

- «سيّد سامر، هل سمعتَ ما قلتُ لك؟».

- «تولين سوف تبقى في رعايتي، أنا لا أستطيع الاستغناء عنها، ولكن يسعدني أن ترضعيها، بل يشرّفني ذلك».

- «ولكن...».

- «أرجوك، هي كلّ ما تبقّى لي في هذه الدنيا؛ فالتفجيرات الغاشمة التي استعرض الإرهابيون قوّتهم بها على النساء والأطفال والعزل حطّمت قلبي، ودمّرت أسرتي، وحرمتني من أحبّتي إلى الأبد. أنت لا تستطيعين أن تتخيّلي الجحيم الذي عشتُ فيه وأنا أبحث عن تولين بعد الحادث، لأجدها في هذا المستشفى تقبع وحيدةً باكيةً».

- «ولكن...».

- «أرجوك».

- «ولكن أين ماما؟ هل ستغيب طويلاً؟ هل ستبقى نائمةً إلى الأبد؟ أنا أكره المفرقعات؛ لأنها جعلت ماما تبتعد عني، ماما أنا أحبّك».

التوقيع: ابنتك تولين



هجرة المخطوطات العربية

أبو زكريا صالح الحجي

الرياض - السعودية

المقدمة

لم يمضِ وقت طويل منذ ظهور الدعوة المحمدية في جزيرة العرب حتى امتدت الفتوحات الإسلامية شرقاً وغرباً، واستظلّت الأصقاع المفتوحة بظلّ الدين الإسلامي، واعتنقه أهلها، والتزموا تعاليمه، وتقبّلوا ما حمله من منهج قويم للحياة؛ لتعيش أمم كثيرة مرحلةً جديدةً من تاريخها.

والامتداد الإسلامي لم يكن غزواً لبسط النفوذ، أو السيطرة على بلدان مترامية الأطراف، وإنما كان فتحاً حمل مشعل الدعوة إلى الدين الحق، الذي جعل العلم فريضةً على المسلم، ورفع قدر العلماء، في كل زمان ومكان. لذلك واكب موجة الفتوحات الإسلامية انتشار منقطع النظير للتراث العلمي العربي، ساعد على تحقيقه جملة أسباب ارتبط بعضها ببعض، لعل من أبرزها:

١- انطلاق الفتوحات في اتجاهات مختلفة، فاتّسعت رقعة الدولة الإسلامية شرقاً وغرباً منذ القرن الهجري الأول.

٢- الدين الإسلامي هو دين العلم والفقه في كل شؤون الحياة؛ لذا أقبل الناس في البلدان المفتوحة على طلب العلم إقبالاً شديداً، فنشأت المدارس، وحِلق الذكر ومجالس العلم في المساجد، كما انتشرت المكتبات العامة والخاصة.

تقع مدينة كاشغر حالياً داخل الحدود الصينية غرباً، وهو ما انتهت إليه تبعيّتها في القرن الخامس عشر الهجري حين عُرفت المنطقة التي تقع فيها هذه المدينة باسم (تركستان الشرقية)

٣- تطوّر النهضة العلمية في ظلّ تلك المقومات والمعطيات، فبرز العلماء ومصنّفو الكتب، وتبعاً لذلك نشأت حركة انتساخ الكتب بأقلام مؤلّفيها، أو بأقلام النسّاخ الذين اتّخذوا الوراقة مهنةً لطلب الرزق.

٤- قيام مصانع الورق في كثير من المدن المنضوية تحت راية الإسلام، وما أدى إليه ذلك من التيسير على الورّاقين والنسّاخ والقائمين على أمور المكتبات العامة والخاصة بتوفير مستلزمات الوراقة وأدوات الكتابة؛ مما ساعد على كثرة المؤلفات والنُّسَخ.

٥- اضطلاع المكتبات العامة بخدمة العلماء والمتعلمين على حدّ سواء، بإتاحتها أمكنة للقراءة والاطلاع، وتوفير النُّسَخ من الكتب المختلفة لتكون في متناول الأساتذة والطلاب والمؤلفين أيضاً.

هذه العوامل مجتمعةً وغيرها أدّت إلى تبلور صناعة المخطوطات العربية، خصوصاً في القرون الأولى الهجرية، التي يرى الدكتور عبد الستار الحلوجي أنها «أخصب الفترات في تاريخ المخطوط العربي؛ لأنها هي التي شهدت تطوّر الخطّ العربي والكتابة العربية، وشهدت أيضاً حركة التأليف والترجمة منذ نشأتها إلى أن بلغت قمة مجدها، وشهدت بعد ذلك تطور صناعة الكتاب العربي من أبسط صورها إلى أن بلغت درجة- من النضج الفني»[1].

وفي ظلّ هذه النهضة العلمية ازدهرت المكتبات العامة والخاصة، وزادت حركة انتساخ الكتب والمؤلفات، فاتسعت بذلك دائرة انتشار المخطوطات؛ لتكون جميع المواطن الإسلامية مظانَّ لها، وتنقلت بعض الكتب أو نُسخ منها بين الأمكنة التي انتسخت فيها وأمكنة أخرى من البلاد المترامية الأطراف، مسايرةً بذلك تنقلات العلماء والمشايخ وطلاب العلم بين البلدان والحواضر في الدولة الإسلامية عبر عصورها المختلفة، وليس أدلّ على ذلك الانتشار من حقيقة ذات جانبين:

الأول: الكمّ الهائل من المخطوطات التي زخرت بها المكتبات في جميع أنحاء الخلافة الإسلامية في عصر ازدهارها قروناً كثيرةً.

الثاني: التراث الضخم من المخطوطات الإسلامية التي تقتنيها المكتبات والخزانات المعاصرة، ليس فقط في البلاد الإسلامية، بل في غيرها من دول الشرق والغرب.

والقاسم المشترك بين هذين الجانبين هو تعدّد أمكنة الكتابة والانتساخ، وكثيراً ما تُظهر الفهرسة الدقيقة للمخطوطات أن

الصفحتان الأولى والثانية من الكتاب الأول في المجموع



جلدة المجموع من الظاهر

مكتبةً في أقصى الغرب - مثلاً - تضم نُسَخاً قد كُتبت في أقصى الشرق، أو العكس؛ مما يمكن وصفه بالهجرة والهجرة المعاكسة للمخطوطات العربية على مدى أربعة عشر قرناً، ولم تزل.

كانت الدوافع العلمية في أغلب الأحوال من أهم أسباب انتشار المخطوطات وهجرتها زمن الخلافة الإسلامية بمختلف عصورها؛ إذ كانت النهضة العلمية سمةً من سمات تلك الحقبة التي شهدت تطوراً في حركة تأليف الكتب وانتساخها. كما كانت حدود العالم الإسلامي مفتوحةً لتنقّل العلماء وطلاب العلم بين المدن والبلدان، وما صاحب ذلك من تطوّر لمهنة الوراقة ونَسْخ الكتب بكميات كبيرة، أسهمت في قيام المكتبات العامة والخاصة، التي وإن بقيت دهراً في أوج نشاطها، وسلامة حالها، إلا أن ما مرّت به بلاد الإسلام في الشرق والغرب أدى إلى تردّي أوضاع كثير من دُور العلم، كما حدث لأشهر مكتبة في الشرق الإسلامي (بيت الحكمة في بغداد)، التي «مثلما كانت على موعد مع المجد والازدهار في عصر الخليفتين هارون الرشيد وابنه المأمون في أوائل القرن الثالث الهجري كانت على موعد مع الاضمحلال في نهاية القرن الرابع الهجري»[٢]. وكما حدث لأشهر مكتبة في الغرب الإسلامي (مكتبة قرطبة في الأندلس)، التي «كانت من أوّل ما تعرض للهدم والضياع والتشتيت إبّان الحروب والصراعات التي مهدت لسقوط غرناطة الإسلامية في يد الأعداء بعد مجد امتد سبعمئة وثمانية وسبعين عاماً»[٣].

أما في الوقت الحاضر، فإن الأعداد الكبيرة من التراث الإسلامي المخطوط، الذي تفرّق أشتاتاً في مظانّ كثيرة، يحمل على القول: إذا استثنينا المكتبات التي تتّصل بجذور تاريخية؛ مثل: مكتبة الأزهر في مصر، وجامع الزيتونة في تونس، ومكتبة الحرم المكي، وغيرها، فإن آلاف المخطوطات العربية قد هاجرت إلى المكتبات المعاصرة في بعض البلدان هجرةً قسريةً، يمكن عزوها إلى عدة أسباب، من أهمها:

١- نقلها من مكان إلى آخر لإنقاذها من ويلات الحروب التي حدثت في السابق وما زالت تحدث في مناطق كثيرة من العالم.
٢- نقلها من أمكنتها الأصلية إلى أمكنة أخرى على أيدي أفراد أو جماعات؛ بهدف المتاجرة بها، وبيعها للمكتبات العامة والخاصة.
٣- سعي بعض المكتبات والمراكز العلمية المعاصرة إلى جلب المخطوطات من مظانها؛ بدافع المحافظة عليها وصيانتها، وإتاحتها للمهتمين بدراسات التراث الإسلامي.
٤- نقل كثير من المخطوطات العربية إلى بعض المكتبات في دول كثيرة في الغرب والشرق خلال حقبة الاستعمار التي عانتها بعض البلدان الإسلامية والعربية.

ولنا أن نزعم أنه لولا تلك الهجرة قديماً وحديثاً لما انتشر الإنتاج العلمي بما يمثّله من نُسَخ الكتب والمؤلفات المفردة والمجموعة في أنحاء العالم الإسلامي قروناً من الزمن، ولما حظي كثير من المكتبات ومراكز البحوث المعاصرة بملايين النُّسَخ المخطوطة خلال حقبة طويلة.

هذا البحث يعرض أنموذجاً لما يمكن تسميته هجرة المخطوطات العربية، من خلال التعريف بإحدى المخطوطات التي انتُسخت في القرن السابع الهجري في بلدة (كاشْغَر) في حدود الصين، ثم يقضي الله أن تتمّ هجرتها لتستقرّ في قلب جزيرة العرب (مدينة الرياض) في العقد الأخير من القرن الرابع عشر الهجري.

مدينة كاشْغر قديماً وحديثاً

ذكرها صاحب (معجم البلدان) بهذا اللفظ، وقال في تعريفها: «كاشْغَر بالتقاء الساكنين، والشين معجمة، والغين أيضاً، وراء، وهي مدينة وقرى ورساتيق، يُسافَر إليها من سمرقند وتلك النواحي، وهي في وسط بلاد الترك، وأهلها مسلمون»[٤].

وتقع مدينة كاشْغَر حالياً داخل الحدود الصينية غرباً، وهو ما انتهت إليه تبعيَّتها في القرن الخامس عشر الهجري (العشرين الميلادي) حين عُرفت المنطقة التي تقع فيها هذه المدينة باسم (تركستان الشرقية). ويحدّها من الجنوب: الباكستان، والهند، والتبت، ومن الجنوب الغربي والغرب: أفغانستان، وتركستان الغربية، ومن الشمال: سيبيريا، ومن الشرق والجنوب الشرقي: الصين، ومنغوليا. ومنذ عام ١٩٤٩م غيّر الصينيون اسمها إلى (سينكيانج)[٥].

لقد امتدّ الفتح الإسلامي إلى منطقة (كاشْغَر) وما حولها منذ أواخر القرن الأول الهجري بقيادة قتيبة بن مسلم الباهلي، الذي تُوفّي سنة ٩٦هـ، وهو يُعدّ فاتح بلاد ما وراء النهر، وموطّد أركان الدولة الإسلامية فيما يُعرف اليوم بـ: أوزبكستان، وتركمنستان، وطاجكستان، وقيرغيزيا[٦].

الحركة العلمية في كاشغر بعد الفتح

كانت الدعوة إلى الإسلام ضمن مهامّ الجيوش الإسلامية في غزواتها وفتوحاتها لبلاد ما وراء النهر، وكان للدعاة دور كبير في إسلام سكان تركستان الشرقية[٧] حيث تقع مدينة (كاشْغَر) التي ظلّت عاصمتها الأولى ردحاً من الزمن. ولأن اللغة العربية هي لغة الدين، فقد أقبل سكان تلك البلاد على تعلمها «للاستزادة من العلم والثقافة الإسلامية؛ حتى صاروا أنفسهم من العلماء. وتوالت أجيال منهم حذقوا مختلف العلوم الإسلامية، وقصدهم الناس من سائر الأقطار لتلقّي المزيد من العلم على أيديهم»[٨].

نالت مدينة (كاشْغَر) فيما بعد نصيبها من النهضة العلمية في ظلّ تزايد الإقبال على طلب العلم، وازدهار حركة التأليف وانتساخ المصنفات مما ألّفه علماء تلك المدينة أو غيرهم من أهل المناطق

الصفحتان الأخيرتان من الكتاب الثاني في المجموع



الإسلامية المجاورة. كما هو حال المجموع المخطوط الذي يتناوله البحث، وانتُسخ في هذه البلدة خلال سنتي ٦٢٧هـ و٦٢٨هـ، في حين تمّ التأليف في مدينة سمرقند قبل ذلك بأكثر من سبعين سنة.

أنموذج من المخطوطات المهاجرة

الأنموذج الذي يعرضه هذا البحث لهجرة بعض المخطوطات العربية من موطنها الأصلي إلى مناطق أخرى هو مجلد يضمّ بين دفتيه كتابين، يقعان في ما مجموعه مئة وثمانٍ وتسعون ورقة. ومثل هذا المجلد يصنّف في علم فهرسة المخطوطات ضمن المجاميع التي عادةً يحوي الواحد منها «عدة رسائل أو مؤلّفات»[9]. وتتعدّد أشكال المجاميع حسب محتواها على النحو الآتي[10]:

١- المجموع المشتمل على عدة رسائل أو كتب مختلفة الموضوع لأكثر من مؤلف.

٢- المجموع المشتمل على عدة رسائل أو كتب مختلفة الموضوع لكنها لمؤلف واحد.

٣- المجموع المشتمل على جملة رسائل أو كتب تُعالج موضوعاً واحداً لعدة مؤلفين.

٤- المجموع الذي كتبه نسّاخ مختلفون في تواريخ مختلفة.

٥- المجموع الذي كُتب بخط واحد في تاريخ معيّن.

٦- المجموع الذي كُتب بخطوط مختلفة، ولكن تاريخ الكتابة واحد أو متقارب.

الوصف المادي للمخطوطة (المجموع)

التجليد

حالته جيدة، وهو مصنوع من الورق المقوّى المكسوّ بالجلد الأحمر، وتبرز في ظاهر دفتي الجلدة زخارف مضغوطة محلاة بماء الذهب، لكن التلف واضح في مواضع متفرّقة منهما، والأرجح أن هذا التجليد تمّ في عصر متأخّر عن الحقبة التي انتسخ فيها المجموع.

الورق

يحوي المجموع مئةً وثماني وتسعين ورقة (أي: ٣٩٦ صفحة)، حالتها بشكل عام حسنة، وتغلب عليها الدكنة قليلاً؛ تأثراً بعامل الزمن، وبما تعرّضت له من الرطوبة والبلل. وبعض المواضع بها أكل أرضة بسيط، وترميم قليل، وفي بعض الهوامش شروح وتعليقات. ويظهر اضطراب في ترتيب عدة ورقات في بداية المجلد، الذي ألحقت بأوله وآخره فوائد فقهية، ربما كانت بخط ناسخ المجموع. مقاس الورق ١٨,٥ سم ارتفاعاً، و١٥ سم عرضاً، وعدد السطور في الصفحة الواحدة ١٧ سطراً.

الخط والكتابة

الخط تدويني مُعتنًى به في أغلب الصفحات، ومُستعجل في بعض المواضع. ولون الحبر أسود، باستثناء بعض أسماء الأبواب ورؤوس الفقر والوقفات والفواصل فهي مكتوبة بحبر أحمر غامق.

الناسخ وتاريخ النسخ

الكتابان اللذان حواهما هذا المجموع نمّقهما ناسخ واحد، هو علي بن محمد بن عليّ، الملقب بفخر البستاني، وقد ذَكَر اسمه وتاريخ فراغه من الكتابة في آخر النسختين على النحو الآتي:

في نهاية الكتاب الأول قال ما نصُّه: «وقد تمّ الكتاب بعون الملك الوهاب على يد عبده الضعيف المذنب الخاطئ الجاني الراجي إلى رحمة الله وغفرانه علي بن محمد بن علي، الملقب بفخر البستاني، غفر الله له ولوالديه ولمن نظر فيه، ولمن قرأ عنه، ولمن قال آمين، في نصف ليلة الجمعة، في بلدة كاشغر، في غرة صفر سنة سبع وعشرين وستمائة». أما في آخر الكتاب الثاني فقد جاء ما رسمه: «وقع الفراغ من تسويده يوم الثلاثاء في سلخ ربيع الأول، في بلدة كاشغر، على يد العبد الضعيف المذنب الراجي رحمة ربه علي بن محمد بن علي، سنة ثمان وعشرين وستمائة».

محتوى المجموع

الكتاب الأول: (يحتلّ أغلب صفحات المجموع، ويقع في ١٦٤ ورقة؛ أي: ٣٢٨ صفحة).

العنوان: الفقه النافع

هذا هو العنوان الذي أثبته المؤلف في ديباجته؛ إذ قال: «الحمد لله رب

> الكتابان نمّقهما ناسخ واحد، هو علي بن محمد بن عليّ، الملقب بفخر البستاني، وقد ذكر اسمه وتاريخ فراغه من الكتابة في آخر النسختين

العالمين حمداً أمده الأبد، وعدده أن لا يحصيه العدد... سألتموني أن أصوغ لكم في الفقه كتاباً نافعاً... وسمّيته الفقه النافع».

وفي الفائدة المدوّنة في وجه الورقة الأولى من المخطوطة كُتب بخط أحدث من خط الفائدة وخط النسخة: كتاب النافع (في أعلى الصفحة)، و(النافع في الفقه) أسفلها.

كما أن صاحب كتاب (الهادي للبادي) الذي يلي هذا الكتاب في المجموع ذكر في مقدمته أنه لما رأى «كتاب النافع الذي صاغه السند الإمام الأجلّ ناصر الدين...» إلخ؛ أي أنه سمّى كتاب السمرقندي بهذا الاسم، وربما هذا ما حدا بصاحب (كشف الظنون) أن ينفرد بذكر الكتاب بعنوان (النافع في الفروع)[11].

أما المصادر التي ترجمت للمؤلف، والفهارس التي حوت وصف نسخ خطية للكتاب، فقد أوردت العنوان الذي أثبته المؤلف لكتابه (الفقه النافع).

المؤلف:

اشتهر بالسَّمَرقندي، وهو محمد بن يوسف بن محمد بن علي بن محمد العلوي الحسني، أبو القاسم، ناصر الدين المدني، السمرقندي؛ فقيه حنفي، عالم بالتفسير والحديث والوعظ، من أهل سمرقند، وقد حجّ سنة ٥٤٢هـ، وأقام في عودته مدةً ببغداد، ومات بسمرقند، سنة ٥٥٦ هـ[12].

وإذا لم يكن ما جاء في (كشف الظنون) عن وفاته سنة ٦٥٥هـ خطأً طباعياً فإن صاحب (الكشف) قد وقع في وهم في هذا التاريخ؛ لأن الناسخ الذي كتب هذه النسخة من (الفقه النافع) سنة ٦٢٧هـ ترحَّم على المؤلف في خطبة الكتاب، وهذا تأكيد لوفاته قبل تلك السنة، والله أعلم.

مؤلفاته

له عدة تصانيف غير كتابه هذا، منها[13]: (جامع الفتاوى)، و(بلوغ الأرب من تحقيق استعارات العرب)، و(رياضة الأخلاق)، و(مصابيح السبل) مجلدان في فروع الحنفية، و(الملتقط في الفتاوى الحنفية)، ويسمى (مآل الفتاوى).

تحقيق الكتاب ونشره

فيما ظهر للباحث أن الكتاب، بما له من نسخ خطية في غير مكتبة، لم يحظَ باهتمام المعنيين بالتحقيق العلمي للمخطوطات العربية ونشرها حتى جاءت سنة ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م، وتم تحقيقه في ستة مجلدات أطروحةً للدكتوراه في كلية الشريعة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض[14].

وليس هناك ما يؤكّد أو ينفي طباعة هذا التحقيق ونشره، لكن اسم هذا الكتاب لم يظهر خلال البحث في قوائم المطبوعات الحديثة وفهارس كثير من المكتبات والمراكز العلمية.

نُسخ الكتاب

لم يكن من أهداف البحث استقصاء جميع النسخ المخطوطة لهذا الكتاب، غير أنه تمّ النظر في بعض فهارس المخطوطات، ولم يظهر فيها إلا ثلاث نسخ، هي كالآتي:

- النسخة الأولى: هي التي ضمن المجموع محور البحث، وهي من مقتنيات مكتبة جامعة الملك سعود بالرياض، محفوظة بالرقم ٦١٧٩م، وقد مرّ ضمن الوصف المادي للمجموع بيان حالة هذه النسخة من حيث الورق، والخط، والكتابة، وغير ذلك.
- النسخة الثانية: محفوظة بالرقم ١٤٢ في مكتبة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، وقد وردت لها فهرسة شاملة في (الفهرس الوصفي لمخطوطات الفقه الإسلامي وأصوله)[15].
- النسخة الثالثة: من مقتنيات مكتبة الملك عبدالعزيز العامة بالرياض، وهي محفوظة بالرقم ٢١٤٨خ، ولها وصف موجز في فهرس المكتبة الإلكتروني[16].

الكتاب الثاني: (يقع في الثلاث والثلاثين ورقة الأخيرة في المجموع: ق ١٦٥-١٩٨)

العنوان: الهادي للبادي

وهو شرح لكتاب (الفقه النافع) المذكور آنفاً؛ فقد قال مؤلفه في مقدمته: «إني لما رأيت كتاب النافع الذي صاغه السند الإمام الأجلّ ناصر الدين... فأردت فتح إغلاقه، وتقليب أجزائه وأوراقه؛ ليسهل دَرْكُه... وسمّيته الهادي للبادي...».

الأنموذج الذي يعرضه هذا البحث لهجرة بعض المخطوطات العربية هو مجلد يضمّ بين دفتيه كتابين، يقعان في ما مجموعه مئة وثمانٍ وتسعون ورقة

المؤلف

أبو بكر بن محمود (كذا قال عن نفسه في المقدمة التي دبج بها كتابه)، وكذا ذكره صاحب (كشف الظنون) في سرد الشروح على كتاب (الفقه النافع للسمرقندي)[17].

لم تسعفنا المصادر التي تمّ البحث فيها بترجمة له، والظنّ قويّ بأنه عاش في المدة بين منتصف القرن السادس ومنتصف القرن السابع الهجريين إذا عرفنا أن هذه النسخة من كتابه (الهادي للبادي، شرح الفقه النافع للسمرقندي) قد انتُسخت سنة ٦٢٨هـ، في حين توفي صاحب الكتاب المشروح سنة ٥٥٦هـ.

ومما يُلاحظ أن اسم المؤلف جاء مختصراً في المقدمة، ولم يُذكر في آخر النسخة، خلاف المألوف في كثير من المخطوطات أن يذكر الناسخُ اسمَ المؤلف وعنوان الكتاب في حرد المتن.

أما وفاته، فهي مجهولة حتى في (كشف الظنون)، وهو المصدر المطبوع الوحيد الذي ذكره مؤلفاً لكتاب (الهادي للبادي) على أنه أحد شروح (النافع في الفقه) للسمرقندي.

نُسخ الكتاب

لم يثمر البحث في مظانّ الكتب المخطوطة والمطبوعة وتراجم الأعلام عن توافر معلومات كافية لنُسَخ أخرى من هذا الكتاب، أو ترجمة وافية لمؤلفه، عدا النبذة التي مرّت الإشارة إليها نقلاً عن كتاب (كشف الظنون)، ونصّ ما جاء فيها: «ولأبي بكر بن محمود، المُتوفَّى سنة... كتاب (الهادي للبادي) على كتاب (النافع) لعله من شروحه»[18].

وأمام الشُّحّ في المعلومات عن الكتاب ومصنِّفه تكاد تكون هذه النسخة منه هي الوحيدة المعروفة حتى الآن، وقد سبق القول: إنها تقع ضمن المجموع محور البحث، والمحفوظ بالرقم ٦١٧٩م بقسم المخطوطات في مكتبة جامعة الملك سعود بالرياض، وقد مرّ في فقرة سابقة بيان أبرز الملامح المادية لها من حيث حالة الورق، والخط، والكتابة، وما ظهر من آثار الرطوبة والبلل، وغير ذلك.

ولعلّ هذا البحث، من خلال الإشارة إلى هذه النسخة، يسهم بالتعريف بمخطوطة ربما تكون مجهولةً لدى الباحثين، ويضع اليد على أحد الشروح الجديدة لكتاب (الفقه النافع للسمرقندي)؛ ليلتفت إليه نظر المهتمين بتحقيق المخطوطات وفق المنهج العلمي الحديث؛ للعمل على طباعته ونشره محققاً تعميماً للفائدة.

المراجع

(١) المخطوط العربي منذ نشأته إلى آخر القرن الرابع الهجري، عبدالستار الحلوجي، الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م، ص٢٧٥.

(٢) رحلة إذاعية في عالم المخطوطات العربية، صالح الحجي، الرياض: مكتبة العبيكان، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م، ط١، ص١٤.

(٣) السابق، ص١٦-١٧.

(٤) معجم البلدان، ياقوت الحموي، بيروت: دار صادر للطباعة والنشر، ١٩٧٩م، ص٤٣٠، ٤٣١.

(٥) فتح كاشْغَر، محمود شيث خطاب، مجلة الأمة (القطرية)، العدد ٥٠، صفر سنة ١٤٠٥هـ (الموقع الإلكتروني: الفسطاط المجلة التاريخية).

(٦) خزائن الكتب في بلاد ما وراء النهر، عبداللطيف سمرقندي، مجلة عالم الكتب، مج٢٦، ع٥، ٦ (الربيعان - الجماديان سنة ١٤٢٦هـ)، ص٦٢٣.

(٧) الحياة الاقتصادية في بلاد ما وراء النهر، العصر العباسي الأول، إلهام أحمد البابطين، الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م، ص٥٤.

(٨) السابق، ص٥٦.

(٩) المخطوطات العربية: مشكلات وحلول، عابد سليمان المشوخي، الرياض: مكتبة الملك عبدالعزيز العامة، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م، ص٨١.

(١٠) رحلة إذاعية في عالم المخطوطات العربية، مرجع سابق، ص٢٣.

(١١) كشف الظنون، حاجي خليفة، طهران: مكتبة الإسلامية والجعفري تبريزي، ١٩٤٧م، ط٣، ٢: ١٩٢١.

(١٢) الأعلام (قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين)، خير الدين الزركلي، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٠م، ط٥، ٧: ١٤٩.

(١٣) السابق، ٧: ١٤٩.

(١٤) فهرس مكتبة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية (النسخة الإلكترونية).

(١٥) الفهرس الوصفي لمخطوطات الفقه الإسلامي وأصوله، إعداد: مصطفى بركات، الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٢٣هـ، ط١، ص٢٨٨-٢٩٠.

(١٦) فهرس مكتبة الملك عبدالعزيز العامة بالرياض (النسخة الإلكترونية).

(١٧) كشف الظنون، مرجع سابق، ٢: ١٩٢٢.

(١٨) السابق، ٢: ١٩٢٢.

الشاي: الشـــراب الأكـــثر شـعبية

كنـــعـــان محـمـد

بافراني - المجر



استطلاع

على مائدة الشاي يتسامر الأصدقاء والضيوف والمحبون، وتتوثّق العلاقة بين الجيران والمعارف وأصحاب المهن؛ فهو الشراب الأكثر شعبية. شراب الفقراء والأغنياء على السواء. يُشرب في الريف والمدينة، في البيت والدائرة، في المقهى والمطعم. ويُشرب عند الإفطار والغداء والعشاء، وبين وجبات الغداء. وبه يُستقبل الضيوف. وعلى إيقاع الملعقة التي تذوّب السكر في أقداح الشاي يطيب الحديث، وتدور المناقشات، وتفضّ المنازعات؛ فهو يطيّب الخاطر. ويبهج النفس، ويذيب الهموم؛ لذلك أصبح للشاي طقسه الخاص، وقيمته السرية والخاصة في حياة الفرد، فمن أدمن شربه يشربه عند الفرح والحزن، وعند البهجة والقلق والانفعال.

ولشرب الشاي طقوس وتقاليد وأصول ينبغي معرفتها واحترامها، منها: رفض شرب الشاي، أو ردّ الإستكان الذي يقدمه صاحب البيت، وإلا ربّما فسّر ذلك بإضمار الشر، أو الانتقاص من صاحب الدار وعدم احترامه. وفي المقابل، على المضيف أن يقدم قدح الشاي ممتلئاً غير ناقص، وإلا عدّ ذلك إشارةً إلى نقص في شرف الضيف أو سمعته أو عائلته. ووضع الملعقة في قدح الشاي له أكثر من معنى بالنسبة إلى المقدّم أو الشارب. ومن العادة أيضاً ألاّ يقدم الشاي قبل الماء أو الشراب البارد، ولا بعد القهوة.

في بلاد كثيرة يسمى الشاي بـ(الچاي)، وفي بلاد المغرب العربي يُطلق عليه (الشاهي)، وعادةً ما تطلق تسمية الشاي على كل شراب ساخن معدّ من أجزاء نباتية؛ مثل: الكركديه، والنعناع، والإسكنجبيل، وشاي ماتي، أو شاي الروييبوس، وغيرهما. ويشكّل الشاي مع القهوة والكاكاو أهم المشروبات المنبهة المستعملة على مستوى الاستهلاك العالمي، وهناك كثير من البلدان التي لا تستغني عن مشروب الشاي إلى درجة أنه يعدّ مشروبها الوطني على الرغم من أن الشاي ليس من المحاصيل البستانية لهذه البلدان؛ كالعراق، ومصر، ومعظم دول الخليج العربي؛ فاستهلاك الشاي في المملكة العربية السعودية قدّرته

الشاي من أقدم المشروبات المنبهة والمنشطة، وأول ما عُرف نبات الشاي واستعمل كان في الصين في القرن الخامس قبل الميلاد



آخر الإحصائيات بما يعادل تسعة ملايين كوب يومياً، كما يستهلك بكثرة في معظم البلدان العربية، سواء في شرقها أم في غربها. وكذلك تستهلك بريطانيا وأيرلندا الشاي بكثرة. وللشاي مكانته بين المشروبات الساخنة في الدول التي تزرعه وتنتجه؛ كالصين، والهند، واليابان، وكثير من دول الاتحاد السوفييتي السابق. وبسبب كثرة استهلاكه يبلغ الإنتاج السنوي من الشاي ما يعادل مليونين ونصف المليون طن. وهو المشروب الثاني في العالم بعد الماء، ويقدّر استهلاك الشاي البشري بما يفوق ٣,٥ بلايين كوب يومياً.

الشاي هو من أقدم المشروبات المنبهة والمنشطة، وأول ما عُرف

نبات الشاي واستعمل كان في الصين في القرن الخامس قبل الميلاد. وهناك عدة مقولات أو أساطير تحكي عن قصة اكتشاف الشاي، أشهرها تلك التي ترتبط بقيصر الصين (سن كونج)، الذي كان معروفاً عنه اهتمامه بالطب الشعبي والأعشاب الطبية؛ إذ تقول الحكاية الأسطورية: كان القيصر يشرب ماءً مغلياً كل صباح لأسباب صحية، وفي إحدى الصباحات عندما كان يتناول إفطاره جلبت الرياح ورقة غريبة وسقطت في كوب الماء المغلي، فأعجبته رائحة الماء ونكهته، وشعر بالارتياح والانشراح بعد تناوله كوب الماء هذا، وتعزّز نشاطه، وغزت مخيّلته أفكار مهمة وضرورية بعد تذوّقه نقيع تلك الورقة من الشاي. ومنذ ذلك الصباح الذي كان عام ٢٧٣٧ قبل الميلاد أصبح يضع في كوب الماء المغلي أوراق الشاي.

وعن قصة ولادة نبتة الشاي تحدّثنا الأسطورة الهندية أن أميراً شاباً هندوسياً عاش في مكان ما، وزمان ما، اسمه بودهي هارما. هذا الشاب نذر نفسه وعقله للعبادة وتأدية الطقوس الدينية بعد تحوّله من الديانة الهندوسية إلى الديانة البوذية، ومن يومها نذر نفسه لنشر الديانة التي اعتنقها. وقضى هذا الشاب اليوم

تؤثر نوعية المياه التي يعدّ بها الشاي تأثيراً كبيراً في جودة الشاي المحضّر؛ فكلما كانت المياه عذبة صافية وخالية من الشوائب كان الشاي رائق اللون



الأول وما بعده في التأمّل، الذي هو من أركان العبادة البوذية، إلى أن وهن جسمه، وغلبه النعاس، وتنبّه إلى أنه أغفى قليلاً، وكي لا يعيقه النوم عن أداء الطقوس والتأمّل، ولكي يبقى يقظاً، قصّ جفنيه ورماهما على الأرض، ومن حينها قام بوذا بالمعجزة. وبوذا، الذي يعني اسمه اليقظ، هو مؤسّس الديانة البوذية، الذي حوّله أتباعه إلى إله؛ فقد خلق بوذا من جفني الأمير نبات الشاي، وأنبته في الأرض التي كانت فيها الأجفان، ومنذ ذلك الوقت حتى الآن يبعد نبات الشاي النوم عن العيون المتعبة الناعسة.

والشاي من النباتات المقدسة في الهند؛ إذ لأوراق الشاي دور مهم في تأدية طقوس العبادة؛ فالمتعبدون يقدمون الأوراق نذراً للآلهة، خصوصاً الإله شيفا، فهم يقدمون النذور إلى الإله شيفا ويتضرعون إليه ليضمنوا محصولاً وافراً من الشاي.

الموطن الأصلي لنبات الشاي هو المنحدرات الجبلية الجنوبية لجبال الهيمالايا، وتنتشر نباتات الشاي البرية في الصين، وتوجد كذلك في مقاطعة أسام الهندية، وبورما، ومن الصين انتشرت نباتاته إلى المناطق الاستوائية وشبه الاستوائية القريبة. وأول من نقل زراعة الشاي واستخدمه هم المنغوليون، ومنها انتشر إلى روسيا بالقرب من البحر الأسود، ثم إلى كروزيا، وكذلك نقل إلى

الهمالايا الموطن الأصلي لنبات الشاي

عدة مقولات أو أساطير تحكي عن قصة اكتشاف الشاي، أشهرها تلك التي ترتبط بقيصر الصين (سن كونج)، الذي كان معروفاً عنه اهتمامه بالطب الشعبي

اليابان. وفي بداية القرن الثامن عشر بدأ الهولنديون بتطوير زراعة الشاي في سومطرة وجاوا. أما في سريلانكا (السيلان) - موطن الشاي الجيد - فلم تبدأ زراعته إلا في منتصف القرن التاسع عشر. وفي السنوات الأخيرة أنشئت مزارع للشاي في كينيا وتنزانيا وأوغندا في إفريقية. وفي البرازيل وتشيلي والبيرو والأرجنتين في أمريكا الجنوبية. وتحتلّ الهند المرتبة الأولى في إنتاج الشاي، ثم تليها الصين وسريلانكا ودول الهند الصينية وروسيا.

الشاي من النباتات الاستوائية وشبه الاستوائية. ودرجة الحرارة المثلى لنموه هي ٢٠ درجة مئوية، وعند ارتفاع درجة الحرارة يبطئ نمو النبات. ويتحمل النبات درجات الحرارة المنخفضة التي تصل إلى ١٠ درجات مئوية تحت الصفر. وأحد العوامل المهمة في نجاح زراعة نبات الشاي هو توافر الرطوبة النسبية في الهواء بنسبة لا تقل عن ٧٠-٨٠٪؛ إذ إن حالات الجفاف توقف النمو، وتسبب موت الشتلات الصغيرة. وأفضل المناطق لزراعة الشاي وإنتاج أفضل النوعيات هي الهضاب المرتفعة في المناطق الاستوائية.

يتم تكثير نباتات الشاي بزراعة البذور، لكن أكثر الطرائق المستعملة للتكاثر هي زراعة العقل، سواء الخشبية منها أو الغضة الطرفية. والعقل الطرفية الغضة تحتوي عادةً على برعمين. ولزيادة نسبة التجذير تعامل العقل بغمس أعقابها مدة ٢٤ ساعة في سائل هرموني يشجع على تكوين الجذور، ويتم إجراء هذه العملية في يوم قطع العقل وتحضيرها نفسه، ثم بعدها تزرع في البيوت البلاستيكية أو الزجاجية التي تتوافر بها الرطوبة العالية، وتبدأ العقل بالتجذير بعد مرور شهرين أو أكثر بقليل.

توجد عدة أنواع من نباتات الشاي بينها اختلافات بسيطة؛ مثل: ارتفاع النبات، وكبر الورقة، وطبيعي أن يختلف كل منهما في المذاق والنكهة التي يعطيانها عند تحضير الشاي منهما. ومن الأنواع المهمة:

- الشاي الصيني Camellia sinensis: وهو شجيرات ترتفع من ثلاثة أمتار إلى خمسة، وأوراقها متوسطة الكبر.
- شاي الأسام (الهندي) var assamica Camellia sinensis: وتم اكتشافه في القرن التاسع عشر، ونباتاته شجرية يصل ارتفاعها إلى خمسة عشر متراً، وهي قليلة التفرّع، وأوراقها كبيرة.
- الشاي السيلاني: وهو نبات هجين بين الشاي الصيني والشاي الأسامي، وهو شجيرات يراوح ارتفاعها بين ثلاثة أمتار وأربعة، ولها أصغر الأوراق.

نبات الشاي شجيرة معمرة تعيش نحو ٦٠-٧٠ عاماً، وهي نباتات دائمة الخضرة، وأوراقها بيضاوية الشكل أو بيضاوية متطاولة. وتتفاوت الأوراق في كبر مساحتها حسب النوع والصنف، ويراوح طولها عامةً بين ثمانية سنتمترات واثني عشر سنتمتراً، وتحتوي الأوراق على عدد من الغدد المملوءة بالزيوت العطرية الطيارة التي تعطي الرائحة الطيبة والمذاق اللذيذ للشاي.

لا يُفسح المجال عادةً لنباتات الشاي كي تزهر؛ بسبب تقليمها المستمر. والنباتات المخصّصة لإنتاج البذور فقط هي التي تترك للتزهير والإثمار؛ ففي المناطق الاستوائية تزهر النباتات طوال العام، أما في المناطق شبه الاستوائية فإنها تزهر خريفاً، وفي شهر

مراحل يمر بها الشاي حتى يصبح في متناول الأيدي



سبتمبر / أيلول، وأكتوبر / تشرين الأول. وتتفتح الأزهار إما مفردةً وإما في مجموعة مكوّنة من زهرتين أو ثلاث زهرات أو أربع تنشأ في آباط أوراق العساليج الجديدة. والأزهار جميلة، ويراوح قطرها بين ٢,٥ و٤ سنتمترات، وهي ثنائية الجنس، لها خمسة أوراق كأسية صغيرة، ولها العدد نفسه من الأوراق التويجية ذات اللون الأبيض أو الأبيض المشوب بالوردي، ويملأ مركز الزهرة الأسدية الصفراء الكثيرة العدد. وبعد التلقيح الذي يتم بواسطة حشرات النحل تعقد الثمار التي عند نضجها تصبح علبةً غلافها جلدي القوام تتكون من ثلاث حجرات إلى أربع، تملأ كل حجرة بذرة واحدة كبيرة.

تحتوي أوراق الشاي على نسبة عالية من الماء تصل إلى ٧٧٪ تتبخر عند تجفيف الأوراق، وكميات عالية من التانين تراوح بين ١٤ و١٧٪ تبعاً للأنواع والأصناف والمواد النشوية التي منها السللوز، وكلما زادت نسبة المواد النشوية والسللوز تحسّن مذاق الشاي ونكهته. ومن أهم محتويات أوراق الشاي: قلويدات الكافائين التي تراوح نسبة وجودها بين ٢,٥ و٥٪، وتحتوي على قليل من الثيوبرومين، كما تحتوي على البكتين وزيوت عطرية تراوح نسبتها بين ٠,١ و٠,٢٪، كما تحتوي على أكثر من سبعة عشر نوعاً من الأحماض الأمينية، وفيتامينات B1 وA وD وC. كما تحتوي على عدد من الأملاح المعدنية: كالمنغنيز والبوتاسيوم، وتحتوي على الفلور ذي التأثير الجيد في الأسنان.

من أهم العمليات الزراعية التي تجري في مزارع الشاي هي توجيه نمو النباتات وتربيتها وتقليمها وقطاف الأوراق. إن عمليات توجيه نمو النبات وتربيته ضرورية لتسهيل إجراء العمليات الزراعية التي منها الحراثة والعزق والتسميد، ومن أهمها قطاف الأوراق، ويتم البدء بتربية نباتات الشاي من السنة الأولى للزراعة؛ إذ يتم تقصير النباتات المزروعة إلى ارتفاع يراوح بين ١٠ و١٥ سنتمتراً فوق سطح التربة، ويتم قصّ النبات سنوياً، فيترك من النموات الجديدة ما طوله برعمان إلى ثلاثة براعم، ويقصّ ما بعده. وتتكرّر هذه العملية لزيادة تفرّع النبات. وتصل النباتات في سنتها الثامنة إلى ارتفاع ٦٠-٧٠ سنتمتراً، واتساع ٧٠-٨٠ سنتمتراً. وهذا الحجم يكون ملائماً لقص الأوراق يدوياً. ويجري تقليم النبات تقليماً جائراً كل عدة سنوات كلما دعت الحاجة إلى ذلك عند زيادة ارتفاع النبات عن الحد المطلوب.



تعتمد نوعية أنواع الشاي التجارية المتداولة على عدة عوامل، منها: موقع مزارع الشاي

ومن أهم العمليات جني المحصول: أي: قطاف الأوراق والنهايات الغضة لأطراف العساليج الفتية. ويتم البدء بجني المحصول بعد السنة الثالثة من زراعة الشتلات. ويتم في المناطق الاستوائية جمع المحصول على مدار العام، أما في المناطق شبه الاستوائية فيجري العمل في جمع المحصول صيفاً في نهاية شهر إبريل/ نيسان حتى شهر نوفمبر/ تشرين الثاني. ويتم جني المحصول في الغالب بقطف الأوراق ونهايات الأفرع يدوياً. وبهذه الطريقة تقطف قمم الأفرع بالإبهام والسبابة معاً. وفي اليابان تتم عملية القصّ باستخدام مقصات صغيرة صمّمت لهذا الهدف. وفي روسيا تستخدم مكنات خاصة لقطف النموات الجديدة. وفي كل الأحوال، فإن أفضل أنواع الشاي هو ما يتم قطافه يدوياً.

وبعد القطاف تجمع الأوراق والنهايات الغضة للأفرع، وتفرش في طبقات رقيقة في الظلّ مدة نهار واحد، عندها تذبل الأوراق، وتبدأ بالتخمّر والأكسدة؛ إذ يتحول لونها الأخضر إلى البني. وهذا التخمر يعطي أوراق الشاي النكهة الخاصة المميزة. بعدها تلفّ الأوراق أو تُبرم وتقطع، ثم يجري تجفيفها. والأوراق المعاملة بهذه الطريقة هي التي تعطي الشاي الأسود.

ولا يوجد فرق بين الشاي الأسود والشاي الأخضر إلا من حيث طريقة معاملة الأوراق بعد القطاف؛ فكلاهما من النبات نفسه والأصناف نفسها؛ فالشاي الأخضر مصدره نباتات الشاي التي تعطي الشاي الأسود أيضاً، ولكن لإنتاج الشاي الأخضر تعامل الأوراق المقطوفة بشكل آخر يمنع تأكسدها؛ إذ يتم بعد القطاف تمرير الأوراق على بخار الماء لمنع تخمّرها، ووقف نشاط الإنزيمات فيها، وهذه الأخيرة مهمة؛ لأن الإنزيمات تعمل على أكسدة الأوراق. بعد ذلك تُبرم الأوراق وتجفّف جفافاً تاماً، وفي هذه الطريقة تبقى نسبة أكبر من التانينات في الأوراق. والشاي الأخضر يفضل استعماله في الدول التي تستهلك وتنتج كثيراً من محصول الشاي؛ مثل: الصين واليابان. فهم يعدّون الشاي الأخضر أفضل صحياً، وفي الآونة الأخيرة بدأ يزداد الطلب على الشاي الأخضر. كما يكثر استخدام الشاي الأخضر في دول المغرب العربي، وفي اليمن كذلك.

لإعداد شاي لذيذ يترافق مع طقوسه الجميلة لا بد من الأواني الخاصة به؛ كالسماور، والقوري المعدني أو الخزفي، تصاحبهم كاسات الشاي الزجاجية

وتعتمد نوعية أنواع الشاي التجارية المتداولة على عدة عوامل، منها: موقع مزارع الشاي، وهو عامل محدد لجودة الشاي المنتج؛ فأفضله الذي ينتج من تلك المزارع المنتشرة في الأمكنة المرتفعة في المناطق شبه الاستوائية، فكلما ارتفع موقع المزرعة عن مستوى سطح البحر كانت النوعية أفضل: لذلك يفضّل شرب الشاي السيلاني: لأنه ينتج في مزارع تقع في مثل هذه المناطق. كما أن موسم القطاف يؤثر في نوعية الشاي أيضاً. ومن العوامل المهمة لجودة النوعية هو موقع الأوراق المقطوفة؛ فأفضل أوراق الشاي تلك التي تقطف من قمة الأفرع الفتية؛ إذ كلما كانت الأوراق غضة طرية فإنها تعطي أنواعاً أفضل من الشاي. كما أن صفات الشاي تعتمد على نوع النبات المزروع وصنفه. ولا يمكن إهمال حالة شجيرات الشاي ونموها؛ فالنباتات الجيدة النمو، والخالية من الأمراض النباتية، تعطي أنواعاً ذات صفات عالية الجودة.

ولإعداد شاي لذيذ يترافق مع طقوسه الجميلة لا بد من الأواني الخاصة به؛ كالسماور، والقوري المعدني أو الخزفي. تصاحبهم كاسات الشاي الزجاجية (الإستكان)، وصحونها الخزفية، والملاعق بأنواعها. وأفضل طريقة لإعداد الشاي باستعمال جمر نار الفحم، وإعداد الشاي في الطبيعة عند القيام بالسفرات والولائم أفضل ما يكون عند إعداده على جمر نار الأحطاب. ويستخدم السماور لإعداد الشاي اللذيذ، سواء في البيت أو خارجه.

وتؤثر نوعية المياه التي يعدّ بها الشاي تأثيراً كبيراً في جودة الشاي المحضّر: فكلما كانت المياه عذبة صافية وخالية من الشوائب كان الشاي رائق اللون، زكيّ الرائحة، ذا مذاق ونكهة طيبين. والشاي المحضر بماء غير صافٍ كثير الكلس، لا يكون رائقاً، بل عكراً يميل لونه إلى البياض، وذا رائحة ونكهة غير مقبولتين. عليه، يجب اختيار الماء الذي يحضّر به الشاي: فمياه الأنهار ومياه العيون الرائقة هي أفضل المياه؛ إذ تكون صافيةً عذبةً. وإذا لم تتوافر مثل هذه المياه يعمل على غلي الماء وتركه مدةً طويلةً لكي تترسب كربونات الكالسيوم، وعند الحاجة يستعمل الماء الرائق منها في إعداد الشاي.

يتم إعداد الشاي بغلي الماء، ويجب الحذر من غلي الماء مدة طويلة: إذ في هذه الحالة يقلّ الأوكسجين في الماء، وتتأثر نكهة الشاي. وتوضع كمية مناسبة من الشاي اليابس في الماء المغلي، ويترك (ليتخدّر) وتترسب أوراق الشاي إلى قاع الإناء. وغلي الشاي مدة طويلة يزيد من تأثير التانين الموجود في أوراق الشاي، فيصبح طعمه عفصياً، و يؤدي إلى إقلال امتصاص الأمعاء معدن الحديد.

وعلى الرغم من نصح اختصاصيي التغذية بعدم تناول الشاي مع الطعام أو بعده مباشرةً، بل شربه بعد ساعتين من ذلك، لكننا نشرب الشاي مباشرةً بعد الطعام؛ لأنه يخلص الفم والمريء من الزيوت والشحوم المتبقية بعد الأكل. وتناول كوب من الشاي بعد الوجبات الدسمة الثقيلة يساعد على تقليل الآثار المؤذية للطعام الدسم على الجسم. ومن خصائص الشاي أنه يطفئ العطش؛ لذلك يستخدم بكثرة في البلاد العربية، وهو قابض يفيد في وقف حالات الإسهال.

وبسبب احتواء الشاي على الكافائين؛ فإنه يعمل منبهاً، ويساعد على تخفيف التعب الجسدي والذهني، ويحسن المزاج. وكثير من الآثار والنتائج الصحية للشاي تعود إلى مكونات متعدد الفينول POLYPHENOLS، كما أن توافر مادة الثيانين الطبيعية في أوراق الشاي الجافة يسهم في تحسين وظائف المخ بخفض نسب القلق والتوتر، إضافةً إلى الشعور بالارتياح.

وشرب الشاي يوسّع الشرايين، ويعيد إليها مرونتها، وتناول الفرد قدحاً أو قدحين من الشاي في اليوم الواحد ينعكس بشكل إيجابي على حركة الدورة الدموية، كما أنه يساعد على خفض نسبة الإصابة بمرض سرطان المبايض لدى النساء. والشاي يحتوي على مولّدات للمضادات المناعية القلوية؛ مما يساعد على تقوية جهاز

على الرغم من فوائد شرب الشاي فإن الإفراط في شربه ينقلب إلى مادة مضرّة تسبب فقدان الشهية، وتحدث ضعفاً في الهضم وإمساكاً، وخفقاناً في القلب



عاشقو الشاي يحبونه بنكهات خاصة

المناعة عند الإنسان وحفزه ضد الأمراض. ويؤثر شرب الشاي في الشرايين، ويمنع تجمّع الكولسترول على الجدران الداخلية للأوعية الدموية؛ لاحتوائه على مادة مضادة للتأكسد يطلق عليها اسم فلافونويدز، وهي تقلل من امتصاص الكولسترول، وفعّالة في تجنّب أمراض القلب. وكوب واحد من الشاي يومياً نافع لصحة الأسنان وسلامتها؛ فمكوناته تهاجم البكتيريا الضارة التي تسبب أمراض اللثة والتسوس وغيرها.

وعلى الرغم من الفوائد الجمة لشرب الشاي فإن الإفراط في شربه ينقلب إلى مادة مضرّة تسبب فقدان الشهية، وتحدث ضعفاً في الهضم وإمساكاً، وخفقاناً في القلب، واضطراباً في الأعصاب، ورفع ضغط الدم، وغير ذلك من الاضطرابات، بما في ذلك الإصابة بفقر الدم لنقص الحديد؛ لأن الشاي يعيق امتصاص الوارد للجسم عن طريق الغذاء؛ لهذا ينصح خبراء التغذية بعدم الإفراط في تناول الشاي، وعدم تناوله مع الطعام أو بعده مباشرةً، إنما يمكن شربه بعد ساعتين من تناول الطعام. ولكن توجد في مجتمعنا عادة شرب الشاي مباشرةً بعد الطعام؛ مما قد يساعد على الإصابة بفقر الدم الغذائي، وعدم الاستفادة من عنصر الحديد الموجود في الغذاء؛ لذلك تبرز أهمية التوازن الكمي والنوعي لتناول المواد للاستفادة من فوائدها، وتجنب أضرارها.

والكافائين أو الكوفائين الذي يحتويه الشاي هو قلويد يوجد بصورة طبيعية في عدد كبير من النباتات يصل عددها إلى ستين نوعاً، فإضافةً إلى الشاي فهو يوجد في القهوة والكاكاو والكولا وشاي ماتي، ويمكن تحضيره صناعياً أيضاً. ومن خصائص الكافائين أنه يتحوّل عند استهلاك المشروبات التي تحويه بكثرة إلى الحامض البولي الذي هو أحد مسببات مرض النقرس. ويسبب تناول الكافائين رفع ضغط الدم مؤقتاً، ويقلّل الشهية.

للشاي المحضّر بشكل جيد رائحته ومذاقه ونكهته الخاصة به: فهو وحده مشروب لذيذ، ولكن لكثرة استعماله، ومن أجل التنويع، يفوّح الشاي وينكّه بأنواع كثيرة من مكسبات الطعم أو التوابل، وهي التي تعطي الرائحة والنكهة الخاصة المميزة لكل نوع من أنواع الشاي التجارية. ومن التوابل المستعملة لهذا الهدف، التي يمكن استخدامها عند تحضير الشاي في المنزل:

الهيل: ويستعمل لتطييب الشاي في العراق ودول الخليج العربية. ولأجل ذلك تدقّ بذور الهيل أو تُطحن وتضاف إلى الشاي في أثناء تحضيره. ويضيف الهيل إلى الشاي رائحة عطرة زكية، ومذاقاً طيباً جداً، ونكهة تابلية.

القرنفل: يوضع تابل القرنفل كاملاً في الشاي في أثناء تحضيره، فيكسبه رائحة عبقة، ومذاقاً لاذعاً تابلياً.

القرفة: تضاف القرفة المطحونة إلى الشاي عند تحضيره، فتكسبه رائحة فواحة، وطعماً حلواً طيباً. ويعمل من تابل القرفة وحدها شاياً لذيذاً يُستطاب شربه أيام الشتاء الباردة. ويُستخدم تابل القرفة لتعطير الشاي في اليمن خاصة.

الزنجبيل: عند تحضير الشاي يُضاف إليه قطع صغيرة من تابل الزنجبيل، وتغلى مع الشاي الذي يصبح بعد ذلك ذا مذاق لاذع قليلاً، ونكهة طيبة، مع رائحة خفيفة طيبة. كما يحضر من قطع الزنجبيل المكسرة شراب حار (شاي) يسمى الإسكنجبيل، طعمه لذيذ، ومذاقه لاذع بعض الشيء، وهو يعطي حرارة للمعدة وللجسم

أيضاً؛ لذا يفيد في حالات التعرّض للبرد.

النعناع: توضع أوراق النعناع الخضراء الطرية مع الشاي في أثناء تحضيره، فتحصل على شاي تفوح منه رائحة عطرة، وطعمه عذب، ومذاقه لذيذ. كما يحضّر من النعناع الطري شاي مذاقه غاية في اللذة.

الزعتر: توضع الأجزاء الغضة الخضراء من نبات الزعتر - وإذا لم تتوافر يستعاض منها بالزعتر الجاف - مع الشاي عند تحضيره. وأكثر ما يستعمل الزعتر في تعطير الشاي الأخضر وتطييبه؛ مما يكسب مشروب الشاي رائحة عطرة، ومذاقاً كافورياً.

الورد الجوري: يعطي الورد الجوري الشاي رائحة طيبة حلوة عطرة خفيفة، ويحسن كثيراً من مذاقه ونكهته؛ لاحتوائه على زيوت عطرية. وللوصول إلى هذا الهدف توضع بعض الأوراق التويجية الجافة أو الطرية في إناء تحضير الشاي قبل سكبه في كؤوس الشاي، ونادراً ما يُضاف ماء الورد المستخرج من الأوراق التويجية إلى الشاي، ولكن تضاف بضع قطرات من ماء الورد إلى مشروب القهوة الساخنة قبل تناولها.

الزعفران: تضاف كميات قليلة من خيوط الزعفران إلى الشاي عند تحضيره، فتكسبه لوناً يميل إلى البرتقالي، وتضفي عليه رائحة تابلية عطرة، وتغني نكهته. ويفيد تناول الشاي المنكّه بالزعفران في التغلب على الأرق، وينشط الجهاز العصبي وعضلات القلب، وينقي الدم.

نوم البصرة: تستخدم ثمار نوم البصرة الناضجة والطازجة في تطييب الشاي، ففي حالة استعمال الطازج منها توضع شريحة رقيقة لا يتعدى سمكها بضع مللمترات في كأس الشاي الجاهز، فتعطيه منظراً جذاباً، ورائحة فواحة، وطعماً فيه قليل من الحموضة، وشيء من المرارة. والشاي المحضّر من ثمار نوم البصرة الجافة معروف ومشهور، ويسمى بـ(الشاي الحامض)، ويشرب ساخناً أو مبرداً، وله صفات علاجية كثيرة؛ فهو يسكن آلام الصداع، ويخفف من البرد والإنفلونزا.

العطر: من النباتات العشبية نصف المتخشبة الدائمة الخضرة التي تزرع في الحدائق أو في أصص تُوضع في المنازل. ولأوراق هذا النبات رائحة طيبة عطرة، ولهذا سمي النبات بـ(العطر). تقطف الأوراق الخضراء وتوضع مع الشاي قبل الانتهاء من تحضيره؛ مما يكسبه شذا عطرياً، ومذاقاً كافورياً طيباً.

الياسمين: يعطّر الشاي اليابس المحفوظ بأزهار الياسمين بمختلف أنواعها، ومنها: الياسمين العطري، أو الياسمين ذو الأزهار المملوءة (قطمر)، ومنها الرازقي أو الفل. ونباتات الياسمين هذه بأزهارها البيضاء ذات الرائحة العبقة والأريج الطيب تحتوي على زيوت عطرية نفاذة، وعادةً يعطر بها الشاي الأخضر لتعطي الشاي الأخضر المعطّر بالياسمين، وهو من أنواع الشاي المرغوب الذي يُباع بأسعار عالية. ويتم ذلك بوضع الأزهار المتفتحة في الوعاء الذي تحفظ فيه أوراق الشاي اليابسة ويحكم الغطاء. ويمكن أن يعطر بالياسمين الشاي الأسود أيضاً؛ إذ يكسبه طعماً حلواً ونكهة طيبة، إضافةً إلى الشذا المنعش. وللاستمتاع برائحة الياسمين، الذي لا يدوم تفتّح أزهاره إلا يوماً واحداً، تقطف الأزهار في اليوم الثاني من تفتّحها، وتُوضع مع الشاي اليابس.





سبع توصيات لمؤتمر الأدباء السعوديين

مؤتمر الأدباء السعوديين الثالث

وزارة الثقافة والإعلام
وكالة الوزارة للشؤون الثقافية

أسدل الستار مؤخراً على فعاليات مؤتمر الأدباء السعوديين الذي أقيم في مركز الملك فهد الثقافي في العاصمة الرياض بسبع توصيات بعد ٣ أيام حافلة بالقراءات والدراسات النقدية حول الأدب السعودي.

ووجّه الشاعر عبد الله الصيخان قصيدة لرفيقه الذي يرقد على فراش المرض محمد الثبيتي. كما كرّم د. عبد العزيز السبيل - وكيل وزارة الثقافة والإعلام للشؤون الثقافية - الأديب الشاعر حسن باجودة، وعبّر عن سعادة المثقفين والأدباء بموافقة خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز — حفظه الله — على إقامة المؤتمر كل عامين، مشيراً إلى أنه سيتم طباعة الأوراق العلمية والبحوث المطروحة في المؤتمر. وأشار السبيل إلى أن أول المقترحات التي قدّمت في المؤتمر هو تقديم برقيتي شكر لخادم الحرمين الشريفين لرعايته ودعمه، والثانية لسمو وليّ العهد الأمير سلطان بن عبدالعزيز لتهنئته بالسلامة والعودة إلى أرض الوطن.

وتلخّصت توصيات المؤتمر في: دعوة الجهات ذات العلاقة إلى دعم تأسيس رابطة الأدباء السعوديين، وإنشاء صندوق للأدباء تدعمه وزارة الثقافة والأندية الأدبية في جميع المناطق، والعمل على تفريغ الأدباء ليقوموا بدورهم المنوط بهم في قيادة الثقافة وخدمة الوطن، وإعادة (جائزة الدولة التقديرية للأدب)، وكذلك العمل على تأسيس جوائز أخرى أدبية وثقافية متنوعة، والرفع إلى الجهات المعنية للعمل على تفعيل قرار مجلس الوزراء المنظّم لمشاركة الأدباء والمثقفين في المؤتمرات والمناسبات. وعدم إعاقة حضورهم، وزيادة المساعدات الحكومية للمؤسسات الثقافية، والمطالبة بالاستمرار في طبع الرسائل الجامعية التي تتناول الأدب السعودي.

وعن التفاعل مع الوضع المرضي الذي يمرّ به الأديبان الكبيران غازي القصيبي ومحمد الثبيتي، أجاب السبيل: «لا صحة لتجاهلهما، وكما رأيت الليلة فقد كانت قصيدة الصيخان عن شاعرنا محمد الثبيتي، كما قام نادي حائل الأدبي بطباعة كل أعماله. أما الدكتور والأديب الكبير غازي القصيبي. فقد كان موضوعاً لبحث متخصّص كامل طُبع ووزّع. نسأل الله لهما الشفاء العاجل».



اختتام فعاليات القدس عاصمةً للثقافة العربية



اختتمت في مدينة نابلس بالضفة الغربية المحتلة فعاليات القدس عاصمةً للثقافة العربية لعام ٢٠٠٩م، وأعلن الرئيس الفلسطيني محمود عباس تسليم الشعلة إلى العاصمة القطرية الدوحة بوصفها عاصمةً للثقافة العربية لعام ٢٠١٠م. وقد منعت إسرائيل جميع الفعاليات داخل مدينة القدس، واعتقلت عدداً من المشاركين فيها، في محاولة لتغييب هويتها العربية. وأكد الرئيس عباس في حفل ختام الفعاليات أن القدس ستبقى «هي العاصمة الأبدية للدولة الفلسطينية والأمة العربية والإسلامية»، مشيراً إلى أنه من دون القدس عاصمةً للدولة الفلسطينية «لن يكون هناك سلام إطلاقاً». وشارك في حفل الختام الفنان العربي التونسي لطفي بشناق، الذي أدى أغنية (راجع أرعى غنماتي)، إضافةً إلى مجموعة من القصائد الشعرية التي تفاعل معها الحضور، وألقى الشاعر الفلسطيني سميح القاسم قصيدته (أنا ملك القدس).

إيطالي يحكي تاريخ السعودية بالصور

تحت رعاية الأمير سلمان بن عبدالعزيز – أمير منطقة الرياض – افتتح الأمير سلطان بن سلمان – رئيس الهيئة العامة للسياحة والآثار – بمقر المتحف الوطني في مركز الملك عبدالعزيز التاريخي معرض المصوّر الإيطالي إيلو باتيجيللي الذي عرض صوراً نادرة التقطها الفنان العالمي بين عامي ١٣٦٥ و١٣٧٤هـ/ ١٩٤٦ و١٩٥٤م، وهي الحقبة التي عمل فيها بقسم التصوير في شركة أرامكو، لعمليات استخراج النفط الأولى في المنطقة الشرقية. ويستمر المعرض أربعة أسابيع. ومن أهم تلك الصور: زيارة الملك المؤسس عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود للمنطقة، ومشاهد من الحياة الاجتماعية بتفاصيلها اليومية في مدن المنطقة وقراها، وبعض المعالم الأثرية القديمة.

روائي سوري يفوز بجائزة نجيب محفوظ

منحت لجنة تحكيم جائزة نجيب محفوظ التي ينظّمها قسم النشر في الجامعة الأمريكية في القاهرة الروائي السوري خليل صويلح الجائزة في دورتها الرابعة عشرة عن روايته (وراق الحب).

ووصفت لجنة الجائزة الرواية بأنها «ذكية، ومؤلفها بارع في القصّ؛ فهو يجيد فن الاستطراد والتناصّ من دون أن يفقد بوصلة السرد، وهي تنفذ بحذاقة إلى ماهية فعل الكتابة ذاته من خلال تضمينها وتوظيفها لجمع من النصوص التي تتواصل وتتعارض معها في الوقت نفسه».

وتضم لجنة التحكيم النقاد: د. جابر عصفور، ود. هدى وصفي، ود. عبدالمنعم تليمة، والمغربي محمد برادة، والأردني فخري صالح، وماركك لينز - مسؤول قسم النشر في الجامعة الأمريكية - وفق ما أعلنته د. سامية محرز مقرّرة اللجنة وأستاذة الأدب العربي في الجامعة الأمريكية.

والروائي خليل صويلح مولود في مدينة الحسكة السورية عام ١٩٥٩م، وبدأ حياته شاعراً، فأصدر أول مجموعة شعرية عام ١٩٨٢م، والثانية عام ١٩٨٦م، والثالثة عام ٢٠٠١م. وتعدّ رواية (وراق الحب) الفائزة بهذه الجائزة أولى رواياته، وصدرت عام ٢٠٠٢م، وتبعها بعد ذلك ثلاث روايات، هي: (بريد عاجل) في عام ٢٠٠٤م، و(دع عنك لومي) في عام ٢٠٠٦م، و(زهور وسارة وناريمان) في عام ٢٠٠٨م.



مصر تستعيد من فرنسا آثاراً مسروقة

عادت إلى مصر خمس قطع أثرية مسروقة كانت جزءاً من مقتنيات متحف اللوفر. وقدمت واحدة من القطع الخمس إلى الرئيس المصري حسني مبارك خلال زيارته الرسمية لفرنسا، بينما سلّمت القطع الأربع الأخرى إلى السفارة المصرية في باريس. وتعود القطع الخمس إلى رسم حائطي عمره ٣٢٠٠ عام في أحد المعابد القديمة في مدينة الأقصر في صعيد مصر.

وكانت الشكوك قد ثارت حول القطع الخمس في نوفمبر / تشرين الثاني الماضي عندما اكتشف الضريح الذي يضم رسماً حائطياً لأحد ملوك الأسرة الثامنة عشرة من دون خمس من القطع المكونة لجداريته. وقال المسؤولون في اللوفر: إن أربعاً من القطع الخمس حصل عليها المتحف من مجموعة عالم الآثار الفرنسي غاستون ماسبيرو، في وقت اشتريت فيه القطعة الخامسة من مزاد علني نظّمته دار درو أوشون عام ٢٠٠٢م.

رياض الريس ينتقد فعاليات «بيروت عاصمةً للكتاب»

اعترض الناشر السوري رياض الريس في جناحه بمعرض بيروت العربي والدولي للكتاب الذي افتتح مؤخراً على نوعية الاحتفالات التي أقيمت في بيروت بمناسبة اختيارها (عاصمةً عالميةً للكتاب) العام الحالي عبر شعار رفعه يقول فيه: (الكتاب لا عاصمة له).

ونشر الريس مقالةً تزامنت مع افتتاح المعرض قال فيها: إن «بيروت لا هي عاصمةً عالميةً، ولا الكتاب فيها عالمي»، مهاجماً الاحتفالات التي أقيمت، ووصفها بأنها «هامشية، قروية، محلية وبسيطة. صُرفت عليها موازنات طائلة». وردّت د. ليلى بركات - المنسّقة العامة لفعاليات (بيروت عاصمةً عالميةً للكتاب) - بأن «رياض الريس كان قد تقدّم باقتراح مشروع، طلب من خلاله ٨٠ ألف دولار لنشر كتاب لفواز طرابلسي حول تاريخ العائلات في الشرق الأوسط، ولم تتمّ الموافقة عليه، فهذا ليس من أولوياتنا أن نتبرّع لدور النشر، وفي لبنان ٨٠٠ دار، مع احترامي بالتأكيد لفواز طرابلسي».

يُذكر أن من الأنشطة الثقافية المرافقة للمعرض أمسية شعرية للسعودي أحمد بن سالم عبدالله سالم، وندوة حول المفاهيم الحديثة للإنماء الإنساني بمشاركة داود صايغ، وطارق متري - وزير الإعلام اللبناني - وآلان غريغوار حداد، وزهير شكر - رئيس الجامعة اللبنانية - ومعين حمزة. وأمسية شعرية للشاعر غسان مطر - رئيس اتحاد الكتّاب اللبنانيين - تلتها قراءات للألماني تومان كليبز، إلى جانب محاضرة حول (التربية في لبنان تقرع ناقوس الخطر) لسلطان ناصر الدين. وأمسية شعرية لإبراهيم محمد إبراهيم، وندوة حول جوائز الشارقة.



الأردن تستضيف ملتقى المبدعين العرب

افتتح مؤخراً في عمّان ملتقى للروّاد والمبدعين العرب تمّ خلاله تكريم عدد من المبدعين والشخصيات، من بينهم وزيرة الثقافة الفلسطينية سهام البرغوثي.

وقدّم فنانون أردنيون في حفل الافتتاح مسرحيةً غنائيةً بعنوان: (هي القدس). وقد ناقشت لجان الملتقى على مدى ثلاثة أيام أبحاثاً عن الابتكارات العلمية والمعلوماتية، والفن التشكيلي، والصحافة، والأدب، والمسرح، والإذاعة والتلفاز، والغناء والموسيقا، والطب العربي، والدراما. كما أقيم على هامش الملتقى معرض لروّاد الفن التشكيلي في الأردن.

وقال محمد الخميشي - الأمين العام المساعد في جامعة الدول العربية - خلال افتتاح الملتقى: إن الأمة العربية في «موقف دفاع حاسم، ليس عن هويتها الحضارية فحسب، بل عن وجودها الفعلي والنوعي على خريطة العالم». ودعا إلى «مواجهة هذا الواقع الدولي والعربي بالمزيد من الاجتهاد لتحقيق الذات وإثباتها عبر ممارسة النقد الذاتي لمنجزنا الإبداعي والعلمي، وتجاوز وضعية تهميش المبدع العربي والحضور الفعلي في الساحة الثقافية والإبداعية العالمية».

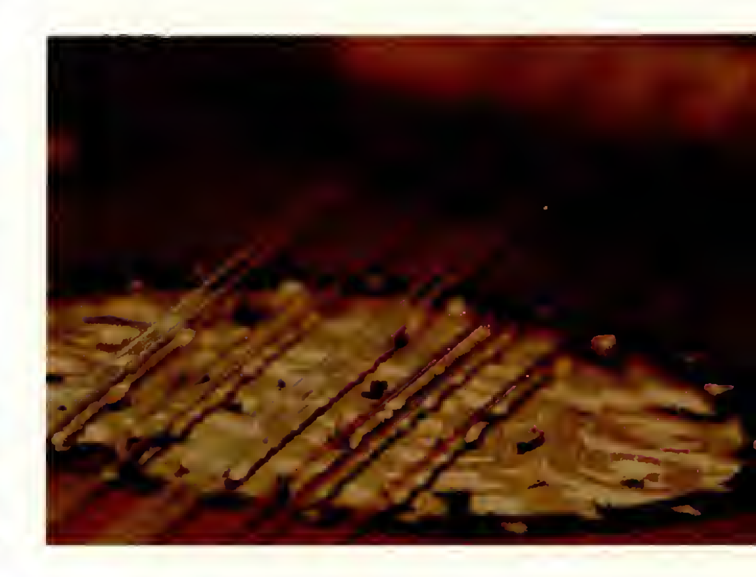


العود من أقدم الآلات الموسيقية العريقة التي عرفتها البشرية منذ آلاف السنين وأهمها. نعته القدامى بـ(سلطان الآلات وملك التخت الشرقي). وهو ليس آلةً عربيةً فحسب، بل آلة عالمية لها عمقها الموسيقي والحضاري، اتّخذه العلماء والفلاسفة وسيلةً لشرح النظريات الموسيقية، واستخدمه الشعراء مع إنشاد القصائد كالأعشى، وذكر المسعودي أن الشاعر كان موسيقياً أيضاً. وجاء في (تاريخ الكامل) للمبرد أن أول من صنع العود هو نوح عليه السلام، وانعدم بعد الطوفان. كما قيل: إن أول من صنعه هو جمشيد (ملك الفرس)، وسمّاه (البربط)، ومعناها بالفارسية: (باب النجاة)، وبالعربية: (صدر البط)، وجعل أوتاره حسب طبائع الإنسان إذا رُتّبت ترتيباً صحيحاً؛ فالزير يقابل الصفراء أو (النوى) باصطلاح اليوم، والمثنى مقابل الدم أو (العشيران) الآن، والبم إزاء السوداء أو (البكاء)[1].

العود آلة العرب

محمد محمود فايد

الإسكندرية - مصر



وللفلاسفة دراسات مهمة ودور كبير في التنظير لآلة العود، فإذا عُدْنا إلى أهم المخطوطات التي تركها هذا الفن وجدنا الوصف العلمي للعود وطرائق تعلّم العزف. ولعل أول دراسة وصلتنا هي مخطوطات الفيلسوف العربي، وأول من دوّن الموسيقا، أبي يوسف يعقوب بن إسحاق بن الصباح الكندي (١٨٥هـ - ٢٥٢هـ/٨٠١-٨٦٦م)؛ ففي مخطوطته (رسالة الكندي في اللحون والنغم) يفصّل كيفية تركيب العود، ويعرض نوعية أوتاره، وغلظها، ونسبها، وتسويتها، وتدوين النغمات أبجدياً في جداول منتظمة[٢].

كان للعود أربعة أوتار، وكان الباحثون النظريون يفترضون وتراً خامساً يسمى (الزير الثاني أو الأسفل أو الحادي)، وإذا علمنا أن الأوتار كانت تصنع في القرن الثالث الهجري من الأمعاء للوترين الغليظين، ومن الحرير للوترين الدقيقين؛ فإنها صارت في القرن الرابع الهجري تُصنع من الحرير بمعدل ٦٤ خيطاً للبم، و٤٨ للمثلث، و٣٦ للمثنى، و٢٧ للزير، فتكون نسبة غلظ كل وتر إلى الذي يليه ٤: ٣؛ مما أوجب صناعة الوتر الخامس من ٢٠ خيطاً، وهو ما يجعله لا يتحمّل الشد المطلوب؛ لذا لم ينتشر العود ذو الأوتار الخمسة[٣].

أما الفارابي، فيعطينا في كتاب (الموسيقا الكبير) وصفاً دقيقاً للعود، مع كيفية شدّ أوتاره، وتركيز الدساتين بشكل ينطبق على الواقع المعاصر، ما عدا شيئاً واحداً، هو أن الآلة حالياً لا يُشدّ عليها دساتين[٤]. كما جعل (الكندي) من العود وسيلة لتدريس العلل الفلكية. ويتركّب العود عنده عملياً من أربعة أوتار، ونظرياً من خمسة، هي بالترتيب من الغلظ إلى الحدة: البم، ثم المثلث، ثم المثنى، ثم الزير الأول، ثم الزير الثاني. ويختصّ كل وتر بستة أصوات، أوّلها مطلق الوتر[٥]. وتستخرج الأصوات الباقية بالعفق بواسطة أحد الأصابع الأربعة بالترتيب: السبابة، ثم الوسطى، ثم البنصر، ثم الخنصر. ونغمة الخنصر في كل وتر تكون على بعد الرابعة التامة من مطلقة، وهي نغمة مطلق الوتر الذي يليه نفسها[٦].

ويعدّ الكندي أول من أدخل الموسيقا إلى الثقافة العربية ضمن مناهج الدراسة، وجزءاً من الفلسفة الرياضية، متأثراً بالإغريق، وعنصراً من عناصر الحكمة الرباعية . ولخشية اعتقاد أن العرب نقلوا موسيقاهم عن اليونان أو الفرس كما يدّعي بعض الباحثين فهناك من الشواهد التاريخية ما يثبت اختلاف موسيقانا العربية عن موسيقا باقي الأمم، وقد أشار الكندي إلى ذلك كثيراً في رسائله[٧].

أول مدرسة موسيقية عربية

أول موسيقي ظهر في الإسلام هو طويس، أو الطاووس الصغير، واسمه الكامل: أبو عبدالمنعم عيسى بن عبدالله الذائب. وجاء النغم العظيم للعود في العصرين الأموي والعباسي؛ لاستخدامه في كل المجالات، وأحياناً في الطب العقلي والنفسي. وأسهم تطور الموسيقا العربية وتطبيق النظريات في تطوير العود. وجعله الآلة الرئيسة؛ لأنه الوحيد الذي يفسّر العلاقة بين الموسيقا والعلوم الأخرى. ولعل بيئة الحجاز إبّان العصر الأموي كانت الأكثر ازدهاراً، فكان للغناء بمكة مدرسة على رأسها: ابن مسجح، وابن محرز، وابن سريج، والغريض، وعبادل بن عطية، وخليل بن عمرو، وسلامة القس، وخليدة، وعقيلة العقيقية[٨]. أما أعلام مدرسة المدينة فهم: سائب خاثر، ومعبد بن وهب، وطويس، وبرد الفؤاد، وعزة الميلاء، وجميلة. وكان في وادي القرى مدرسة ثالثة، من أعلامها: عمرو الحكم، ويعقوب الوادي. أما خارج الحجاز فلم يكن للموسيقا شأن إلا في العراق والشام، ولكنها لم تبلغ جودة موسيقا الحجاز.

وأسبغ سائب خاثر الروح العربية على الموسيقا والغناء الفارسي، واستخدم العود بدلاً من القضيب، وسار تلاميذه على المنهج نفسه، فظهرت الأغنية الفردية المؤدّاة بمصاحبة العود. ووضع ابن مسجح قواعد للعزف والأداء والتلحين. وأوجد مدرسة موسيقية عربية قومية الطابع، متأثراً - بلا ريب - بمؤثرات فارسية وبيزنطية وإغريقية وغيرها من المؤثرات التي تحتّمها نظرية سيولة الثقافة وامتزاج الحضارات[٩].

وكان ابن سريج أول من ضرب بالعود الفارسي بمكة، وكان أحذق العازفين، فنال جائزة الخليفة سليمان بن عبدالملك[١٠].

وورد في كتاب (الأغاني) أن معبد اليقطيني تعلّم على يد سائب خاثر ونشيط الفارسي. وبسبب مستواه المرتفع في الغناء والعزف منحه الخليفة الوليد الثاني جائزة كبيرة[١١].

وفي عصر هارون الرشيد كان قصره منتدى العلماء الفنانين، فجعل للمغنين طبقات، فكان إبراهيم الموصلي وإسماعيل بن جامع ومنصور زلزل في الطبقة الأولى، وفي الثانية سليم بن سلام وعمرو الغزال، وكانت الطبقة الثالثة للعازفين، وكان الواثق أول خليفة موسيقي، وكان عازفاً بارعاً على العود. واستمرت بغداد حتى منتصف القرن التاسع الميلادي مركزاً حيوياً تنبعث منه إشعاعات النهضة الموسيقية إلى أن تأثّرت بأذواق الفرس والمغول والأتراك وغيرهم عن طريق التجارة والحروب، فظهرت موسيقا الآلات، وتمّ تفضيلها على الغناء، وكان القالب المعروف حينها نوعاً من المتتبعات الغنائية يسمى (النوبة)، وكان يسبق كل جزء غنائي افتتاحية موسيقية. وقد أتاحت هذه الطريقة لعازف العود الأداء المرتجل، فتمخض عنه التقاسيم التي لا تزال حتى اليوم مصاحبةً للموال، وانتشر استخدام العود،

شد أوتار العود فن له أصوله





وتغيّرت طريقة العزف عليه بناءً على ما أحدثته الاقتباسات من تغيير جذري. وفي غضون سنوات تفوّق العرب على غيرهم بعد أن أضافوا من عبقريتهم قواعد جديدة لعزف العود[١٢].

بحوث منصور زلزل

في قمة العصر الذهبي العباسي ظهر منصور زلزل أشهر عازفي العود وأفضلهم، وبقي اسمه لامعاً مدة طويلة، وهو أستاذ لإسحاق الموصلي. وكان زلزل في حينه شخصية منفردة، وعالماً مبتكراً، وكان عزفه بعضاً من عمله؛ فقد اقترن اسمه بأسماء بعض نغمات الموسيقا وكأنما اسمه أصبح بحثاً وعلماً، فقد اختلف علماء عصره في موضع عفق نغمة (الوسطى)، فكانوا يسمونها (الوسطى القديمة) بعد أن استحدثوا لها بُعداً جديداً باتصالهم بالموسيقا الفارسية، وسموا تلك النغمة الصادرة عن هذا البُعد الجديد (وسطى الفرس)، فلما جاء زلزل، وهو من الكوفة، استحدث لاستخراج هذا الصوت موضعاً ثالثاً يتوسّط الموضعين المتقدمين عُرف بـ(وسطى زلزل)، وبذلك اشتمل السلم الموسيقي العربي على ثلاثة مواضع لنغمة واحدة، ومقدارها بحساب ابن سينا بالنسبة إلى مطلق الوتر: (الوسطى القديمة ٣٢/٢٧)، و(وسطى زلزل ٢٢/٢٧)، و(وسطى الفرس ٨١/٦٨)[١٣]. ولم يقف مجهود زلزل عند تحقيق أبعاد نغمات السلم الموسيقي، والدقة البارعة في أدائها، بل امتدت بحوثه إلى تحسين صناعة العود، وابتكار العود الشبوط[١٤].

وحسبما جاء في (نفح الطيب)، كان من أهم العلماء الذين ابتكروا إضافات لآلة العود: الكندي، وابن سينا، والفارابي، وزرياب، وابن زيلة، وصفي الدين الأرموي البغدادي، واللاذقي. وطرأ على العود تغيير كبير في شكله، ومواد صناعته، ومقاييسه، وطول أوتاره وعددها[١٥] ومادة صناعتها، فصارت الأوتار تُصنع من أمعاء شبل الأسد بدلاً من سائر الحيوانات. أما استخدام الريشة للعزف، وإضافة الوتر الخامس، فقد نفّذهما علمياً زرياب، مع استمرار العود ذي الأوتار الأربعة (العود القديم)، وذي الأوتار الخمسة (العود الكامل). وفي القرن الرابع عشر أضيف الوتر السادس، فقد جاء في (كشف الهموم والكرب في آلة الطرب) عن عدد الأوتار: «منه ذو اثني عشر وتراً، ومعشر، ومثمن». ونحن نعرف أن الأوتار مزدوجة، وكل وترين يتساويان في إصدار نغمة واحدة. أما في القرن التاسع عشر فظهر العود ذو الأوتار السبعة حسبما يذكر ميخائيل مشاقة في (الرسالة الشرفية).

يوجد في التاريخ الحديث أكثر من دولة عربية تتفوّق في صناعة العود؛ فللعود البغدادي سمعة عالمية جعلت كبار الملحنين والمطربين في العالم العربي يفضّلونه

أصل العود

تعني كلمة العود في المعاجم العربية العصا أو الخشب. ومع أن العود عُرف قديماً إلا أن هناك معلومات غير دقيقة عنه ومجهولة عند كثير حتى عند بعض المختصّين؛ فقد أشاع كتّاب غربيون مغالطات حول أصله. وعلى الرغم من استخدام قدماء المصريين العود في الدولة الحديثة عام ١٦٠٠ ق.م فقد عُثر في مدافن طيبة على آلة منه، وهي محفوظة في المتحف المصري في برلين. كما حاول بعض الكتاب الغربيين إشاعة نوع من الضبابية، ولكننا في الوقت نفسه نجد كثيراً من الكتاب المنصفين الذين يحدّدون في وضوح أن آلة العود قد وصلت إلى أوربا عن طريق العرب[١٦]. فيقول بول هنري لانج: «أما الآلات الوترية التي تغمز أوتارها، فقد حظي العود بكل تقدير، وشاع عزفه في عصر النهضة وعصر الباروك، وأصله مشوب بالغموض»[١٧]. ويقول جيرم وإليزابيث روش: «إن العود قد أتى إلى أوربا من الشرق في أوائل العصور الوسطى»، من دون أن يحدّدا بدقة من أيّ بلاد الشرق جاء. وفي الوقت نفسه نجد كتّاباً منصفين يوضحون الحقيقة، فيقول أنتوني باينز: «قدمت آلة العود إلى أوربا من الحضارة العربية قرب نهاية القرن الثالث عشر». ويقول جيرو فري هيندلي: «وقد دخلت آلة العود إلى أوربا من البلاد الإسلامية»[١٨].

ويؤكد الباحث الموسيقي حميد البصري أن هناك مصادر علمية يعتمد عليها من يريد البحث بموضوعية، هي: اكتشافات المنقبين في المدن القديمة، ودراسة المنحوتات الأثرية، والمخطوطات والنصوص التراثية. وتدّعي شليز نكر أن «العرب اقتبسوا العود من الفرس في القرن السادس الميلادي»، بينما هناك منحوتة

بعض الصناع اكتسبوا شهرة واسعة لمساهتهم الفنية المتفردة



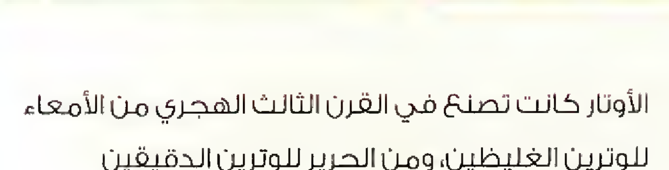
سبئية مؤرّخة في القرن الثالث الميلادي لا يختلف العود فيها عن العود الحديث، وهو يحتوي على ثقبين مدوّرين لتضخيم الصوت، وهذا الأثر يدحض بالقطع رأي شليز نكر؛ لأنه يثبت وجود العود عند العرب قبل التاريخ الذي ذكرته بثلاثة قرون[١٩].

ويذكر د. محمود الحفني في كتابه (علم الآلات الموسيقية) أن العود ظهر عند الفراعنة منذ أكثر من ٣٥٠٠ عام، وكان ذا رقبة قصيرة، كما عثر على عود فرعوني ذي رقبة طويلة وريشته يرجع إلى عام ١٣٠٠ ق.م[٢٠]. ويشاركه الرأي د. سمير الجمال وعدد من الباحثين. لكن من دون أدلة قاطعة. باستثناء أثر واحد يُوجد في المتحف المصري ببرلين عُثر عليه في طيبة[٢١].

وحتى منتصف القرن الماضي كان يُعتقد أن أول وجود للعود كان في مصر أو إيران. لكن أحدث التنقيبات الأثرية وبعد اطلاع الباحث والعازف الفلسطيني وسام جبران على كل الأبحاث والآثار تقريباً يجزم من خلال موقعه الإلكتروني على الشبكة الدولية للمعلومات بأن «أصل العود آكادي؛ حيث عُثر في العراق على قطع أثرية تصوّر عازف عود، وهناك قطعتان في المتحف البريطاني نشرهما الدكتور بومر - المتخصّص في الحضارات القديمة - في الأربعينيات لأول مرة»[٢٢]. وتجدر بنا الإشارة إلى البحوث الشاملة المتعمقة التي قام بها العراقي د. صبحي أنور رشيد في ميدان البحث الأركيولوجي ومجال النقد العلمي لعدد من الآراء في إطار تكوين مفهوم لأصل العود، وهو ربما الباحث الوحيد الذي تناول بالتفصيل والنقد جلّ البحوث في كتابه (الموسيقا في العراق القديم). وهو يصنف البحوث تاريخياً إلى ثلاث مراحل:

- المرحلة الأولى: من خمسينيات القرن العشرين إلى بداية ستينياته، وتضم كتابات كلّ من: بانز ينجر Benzinger، وكورت زاكس Curt Sachs، وفريدريش بين Friedrich Behn، وفرانسيس كالبن Francis Galpin، وهيكمان Hickman.
- المرحلة الثانية: خلال العقد العشرين، وتضم أبحاث كلّ من:





الأوتار كانت تصنع في القرن الثالث الهجري من الأمعاء للوترين الغليظين، ومن الحرير للوترين الدقيقين

شتاودر Stauder، وآين Aign، وكامبل Campell، وريمر Rimmer.

- المرحلة الثالثة: من سبعينيات القرن العشرين حتى أواخره، وتضم أبحاث كل من: د. صبحي أنور رشيد، والباحثة الأمريكية كيلمر Kilmer، والإنجليزية دومينيك كولون Dominique Kolon.

وتجدر بنا الإشارة إلى نسبة تفاوت مهمة في نتائج هذه الأبحاث فيما يتعلق بتحديد دقيق لعمر القطع الأثرية التي تشير إلى استخدام العود. وقد نوّهت عدة مصادر تاريخية بالازدهار الفني لحضارات ما بين النهرين من خلال الآثار المكتشفة التي تصوّر استخدام العود على مجموعة كبيرة من الألواح الطينية والرسوم الجدارية والمنحوتات الحجرية لبعض الآلات. وفي هذا السياق يعود أقدم أثر للعود الأكادي إلى عام ٢٣٥٠ ق.م تقريباً، وهو لوح يجسّد شخصاً جالساً ممسكاً بآلته الموسيقية ذات الصندوق الصوتي الصغير الدائري الشكل والعنق الطويل. وهناك أكثر من ثلاثة ألواح تمثّل الصورة نفسها، الفضل فيها للباحث العراقي صبحي أنور رشيد(٢٣).

ويوجد عدد من الآثار التي أظهرتها التنقيبات في مناطق مجاورة للعراق، وعلى الحدود الشرقية لحوض البحر المتوسط يصنّفها صبحي رشيد في كتابة (الآلات الموسيقية في العصور الإسلامية) بعد دراسة مقارنة لآثار العراق ومصر وسورية وفلسطين وتركيا وإيران أثبتت أن أقدم عود كان في العصر الأكادي (٢٣٥٠- ٢١٥٠ ق.م)؛ أي: قبل ٤٥٠٠ عام تقريباً، والدليل وجود خاتمين أسطوانيين لدى المتحف البريطاني يعودان إلى العصر الآكادي. وقد نشرت هذين الخاتمين أول مرة السيدة فان يورن عام ١٩٣٣م، وأعاد نشرهما الدكتور بومر، ورقما الخاتمين هما: (BM 89096 - BM 28806). ولا توجد آثار سومرية للعود فنسب إلى الآكاديين. أما إيران فعرفته في أواخر القرن السادس عشر قبل الميلاد عقب العصر البابلي. وفي فلسطين تعود أقدم الآثار إلى العصر البرونزي (١٦٠٠- ١٣٠٠ ق.م)[٢٤]. ولا شك أن كلمة العود نفسها في مختلف اللغات تؤكد أصلها العربي، وأدغمت بها أداة التعريف مع حرف العين؛ لصعوبة نطقه لغير العرب، ففي الإنجليزية Lute، وبالفرنسية Luth، وبالإيطالية Liuto، وبالألمانية Laute، وبالإسبانية Loud.

سبق عربي

مع أن التدوين الموسيقي الغربي المعاصر أدقّ وأبسط فإن العرب سبقوا الغرب إلى التدوين بعدة قرون. وكانت الحروف الأبجدية إحدى الأدوات كما ألحنا. أما الأرقام فتدلّ على عدد الدواوين؛ فقد جاء في كتاب (الأغاني) أن إبراهيم بن المهدي سمع لحناً استرعى انتباهه، فكتب إلى صاحبه إسحاق الموصلي أن يرسله إليه بتفاصيله، وهذا يدلّ على أنه في القرن الثامن الميلادي كان للعرب تدوينهم المنفرد، بينما كانت أول إشارة إلى التدوين الغربي بعد القرن الثاني عشر تقريباً.

وقد حوّل الباحث العراقي زكريا يوسف بعض تمارين العود من وضع الكندي من التدوين القديم إلى الحديث، كما حوّل أيضاً مجدي العقيلي جزءاً من موشّح الكندي. ويذكر التاريخ لصفيّ الدين عبدالمؤمن الأرموي (٦١٣هـ/ ١٢١٤م- ٦٩٣هـ/ ١٢٩٤م) توصّله إلى طريقة متكاملة وسهلة للتدوين ميّزت النغمات المختلفة في الطبقات الصوتية بما يقابلها من الحروف الدالة عليها. وحدّد أزمنتها في اللحن بالأعداد التي تخصّ كلاً منها في دور الإيقاع المفروض، ثم قرن أجزاء الأقاويل في الألحان الغنائية بما يقابلها في أجزاء النغم[٢٥].

ابتكار العود الزريابي

ومثلما انتقلت المخطوطات والكتب التي تحمل علوم العرب إلى أوربا عن طريق فتح الأندلس انتقل العود بموسيقاه. وظلّ بصورته العربية مدة، ثم أدخلت عليه تعديلات ليناسب طبيعة الموسيقا الغربية المتعددة الألحان والتصويت، وقامت على العود العربي نهضة غربية غير مسبوقة، كما أنه يعدّ أول آلة يكتب لها منفردة، ويرجع الفضل إلى العود في نقل الموسيقا الأوربية من الكثيرة إلى الحياة الدنيوية. وقد أقام زرياب أول معهد موسيقي منهجي في الأندلس تعلّم فيه أبناء ملوك أوربا ونبلائها وأمرائها، وكان لهم أكبر الأثر في ازدهار الموسيقا ونقلها إلى كل أوربا.

اكتشف زرياب أن وجه عوده قد قضمته الفئران، فحزن لرؤية الفتحة. لكنه عندما عزف لاحظ أن رنينه أصبح أفضل، فقام بتكبير الفتحة، فأصبح الصوت أفضل، وأضاف فتحتين صغيرتين، واليوم نجد للعود فتحة صوت كبيرة واثنتين صغيرتين[٢٦].

وبعد ابتكاره الوتر الخامس عدّ ذلك تطويراً مذهلاً داعماً كفاءة موسيقا العود وتلوينها ونقاءها أضعاف السابق[٢٧]، وقدرة أكبر على مقاومة آثار التقلبات الجوية. كما رغب زرياب في تجاوز التقاليد الشرقية، وحرص على استيعاب طبقات صوتية أوسع وأحدّ: نزولاً عند مقتضيات فنية جديدة، وتجسيداً لنظريات معاصره الكندي. والواقع أن عود زرياب لم ينتشر طويلاً بعد رحيله، لكن أبحاثه مثّلت إضافة متقدمة للعود، فأثرى تقنيات تنفيذ الأعمال الأوركسترالية كما حدث لاحقاً في مراحل تطوير الموسيقا الغربية[٢٨].

تطور الصناعة والمكوّنات

يتكوّن العود من صندوق صوتي، طوله خمسون سنتيمتراً، وعرض أوسع مناطقه يبلغ سبعة وثلاثين سنتيمتراً، وطول الرقبة أو العنق عشرون سنتيمتراً تنتهي بقاعدة المفاتيح، ويبلغ عددها أحد





عشر مفتاحاً. تشدّ خمسة أوتار ثنائية الشد أو مزدوجة، يبلغ طول الواحد ستين سنتيمتراً، وقد تطوّرت فتحات وجه الصندوق عبر العصور[٢٩]. ويعتقد الباحثون أن الأوتار كانت تُصنع من المعدن، لكنه لم يُعثر حتى الآن على أيّ أثر يقطع بصحة هذا الاعتقاد. وهناك تحوّل مهم أدى إلى تطوّر صوتي ملحوظ: إذ تمّ الانصراف عن العود ذي البطن الجلدي إلى الخشبي في القرن السابع الميلادي على يد النضر بن حارث في عام ٦٢٤م تقريباً[٣٠].

تميّز العود الجيد برنين صوتي قوي، مع خفة وزن خشبه والأضلاع التي يصنع منها تجويف صندوقه[٣١]، وغالباً ما يكون سمكها أقلّ من ٣٢/١ من البوصة، وخشب التجويف من خشب الصنوبر، والشمسية (الفتحة الموجودة على سطح العود) تكون مزخرفة، ويراوح سمكها بين ١٢/١ و١٦/١ من البوصة، وتدعمها ست دعائم خشبية عمودية تغرى تحت جدار التجويف من الداخل. ويؤدي نوع الخشب دوراً مهماً في جمال الرنين. ولتحقيق التوازن يجب أن يكون بيت الملاوي مائلاً إلى الخلف بزاوية قائمة. وكانت أشهر أمكنة الصناعة في أوربا هي مدينة بولونيا، ثم ظهرت في عام ١٥١٨م مؤسسة لصناعة العود أدارها لاوكس مالر Laux Maler، وقد حققت سمعه أسطورية لبولونيا لما يزيد على مئتي عام. ومع حلول عام ١٦٠٠م اشتهر صنّاع آخرون في مدينة بادو الإيطالية، ومدينة البندقية، وورومانيا، خصوصاً في صناعة الأحجام الكبيرة للعود: مثل الطيوربو Theorbo. كانت الميزة الكبرى لموسيقا العود في ذلك الوقت هي شخصيته البوليفونية، كما كان أكثر الآلات المنفردة الجادة في القرن السادس عشر، فشاع عزف العود منذ عصر النهضة حتى نهاية عصر الباروك[٣٢]. وفي عام ١٦٠٠م نشر أنطونيو فرانشيسك مؤلفه Tresor Dorphees. وسجل فيه عدة مقطوعات بعنوان Acordas Avalees دلّت على الاستياء من استخدام الطريقة القديمة لتسوية الأوتار؛ فقد كانت هناك رغبة في إضافة أوتار غليظة حتى في عصرها الذهبي، فكتب دولاند لإضافة وتر سابع ري D، وثلاثة أوتار غليظة. ثم زادت الرغبة في استخدام العود كآلة مصاحبة تؤدي لحن الباص المتصل Continuo في المجموعات الآلية. وفي النصف الثاني من القرن السادس عشر تم اختراع عود الكونسيرات أو طيوربا، كما ظهر العود الباص (الكيتاروني Chitarrone).

وقد نُشرت مؤلفات آلة العود على نطاق واسع، وبمرور الوقت تعقّد تركيب الآلة في الوقت الذي كانت فيه آلة البيانو قد اكتملت صناعتها مع سهولتها لأداء الموسيقا الأوربية، فانتصرت على العود وحلّت محلّه في منتصف القرن الثامن عشر. الجدير بالذكر أن فن الأوبرا بدأ بأغانٍ يصاحبها العود، وقد انبثق من العود آلات (الجيتار، والبانجو، والماندولين، والسيتيرن، والباندورا، والفيبلا، والأورفاريون، والجيتري، والبلالايكا، وغيرها)[٣٣].

ويؤكد الفنان أحمد مختار أن كثرة إضافة الأوتار سيؤدي إلى إنتاج آلة جديدة غير العود، وأن هذه الإضافات تتم عبر الحساب الرياضي وليس بشكل عشوائي، ولا يستوعب حجم العود الآن هذه الإضافات، فأدى ذلك إلى تراجع ادّعاءاتهم بعد أن وضحت لهم الطريقة العلمية للإضافات؛ لأن الادّعاء بلا أدلة كالوثائق والمخطوطات يعدّ أحد الأسباب التي تجعل منظمة اليونسكو لا تثق ببعض موسيقيي بلداننا، خصوصاً المنتمين إلى الأنظمة غير الشرعية وغير الأكاديمية[٣٤].





كثرة إضافة الأوتار يهدد بتحول العود إلى آلة أخرى

تفرّد العود العراقي

يوجد في التاريخ الحديث أكثر من دولة عربية تتفوّق في صناعة العود: فللعود البغدادي سمعة عالمية جعلت كبار الملحنين والمطربين في العالم العربي يفضّلونه، وهناك صناع خبراء؛ مثل: سمير رشيد، ومحمد فاضل، وعبده النحات. كما اشتهرت دمشق بذلك. وتميّز العود الدمشقي بدقة الصنع. وهناك أيضاً العود المصري، والكويتي، والتركي[35]. ويمتاز العود العراقي بألوان الخشب الطبيعية، والتقليل من المواد كالبلاستيك والصدف، وهي تتنوع صوتياً من الشرقي الكبير إلى المتوسط الناعم إلى الأكاديمي[36]. فأعواد محمد فاضل يتجاوز سعر الواحد منها ٥٠ ألف دولار، وقسم منها في المتاحف العالمية. ومشكلة الصنّاع الآن غياب مستلزمات الصناعة منذ ثمانينيات القرن الماضي. نجم العبيدي، وعلي العجمي. ونجم الدين. والشريف محيي الدين حيدر كانوا الأساتذة الأشهر تقنياً وعزفاً، وبعدهم هاشم البغدادي، وفوزي المنشد، وجميل جرجس. لقد صنع محمد فاضل أكثر من خمسة آلاف عود قبل وفاته إبان الاحتلال الأمريكي، وكان الأستاذ الأول الذي سلّم ولده فائق - أشهر الصنّاع في تونس - أسرار هذه الصناعة. أما الآن، فيعدّ هشام الهاشم، وفؤاد جهاد، وإياد صالح منصور، ونجم عبود، وصالح علوان الصالح أبرز الصنّاع، ومن زبائنهم: نصير شمة، وكاظم الساهر، وصباح فخري، وعباس جميل، وأحمد مختار، ومحمد عبده، وعبادي الجوهر، وعبدالمجيد عبدالله. وأغلب الصنّاع السالفين تتكفّل في الأغلب معارض ومحلات ببيع آلاتهم داخل العراق وخارجه. وتمرّ الصناعة بمراحل مختلفة باستخدام أنواع نادرة من الخشب، ولا تصنع ورشة صالح علوان أكثر من عود كل عشرة أيام، خلافاً للورش السورية والمصرية واللبنانية وغيرها التي تصنع ٢٠ عوداً في اليوم. وهناك ستة صنّاع في كل ورشة، بينما في العراق كله لا يتجاوز عدد الصناع الآن عدد الأصابع، وهذا سرّ تفوّق صوت العود العراقي[37].

العود الكويتي

أما يوسف حسين سالمين الكويتي، فهو يؤلّف بين أقدم التقنيات وأحدثها. وحتى عام ٢٠٠٨م، وخلال ثلاثين عاماً مضت، تعاون مع فريقه في صناعة أكثر من ٩٠٠٠ آلة، ولشركته تصميمات حصرية، حتى أصبح (عود سالمين) يُعرف بجودته العالمية، ورنينه العذب. وهو يستورد أجود الأخشاب من مختلف أنحاء العالم: مثل: الخشب الأسود، والبني، وخشب الجوز. وقد ابتكر طريقة لسحب الزيت من الأخشاب وتجفيفها؛ لأنه كلّما زاد جفافها زادت جودة العود. من خلال فرن حديدي خاصّ ذي سطح دائري تلصق قطع الخشب

مسابقة العدد

أسماء الفائزين

العدد المزدوج ٣٩٧-٣٩٨

رجب - شعبان ١٤٣٠هـ

الفائز الأول: راكان سليمان إبراهيم - الرياض - السعودية.

الفائز الثاني: ولاء يوسف محمد - السويس - مصر.

الفائز الثالث: شادي جميل سعيد الحاج - صنعاء - اليمن.

الفائز الرابع: أحمد محمود كريم حمودي - إربد - الأردن.

الفائز الخامس: عيسى حبيب سلطان - الدوحة - قطر.

الفائز السادس: محمد شوقي الهرلي - تونس - تونس.

الفائز السابع: مهدية وجيه أبو حويبي - درعا - سورية.

الفائز الثامن: عبدالمنعم الثبيري - دبي - الإمارات.

حل المسابقة

العدد المزدوج ٣٩٧-٣٩٨

رجب - شعبان ١٤٣٠هـ

١- السورة من القرآن التي فيها بسملتان هي سورة النمل.

٢- والت ديزني هو أكثر منتجي أفلام الرسوم المتحركة شهرةً، وهو مبتكر شخصيات ميكي ماوس، ودونالدك، وغوفي وبلوتو، وبدأ نشاطه في عام ١٩٢٨م.

٣- الطحال هو عضو إسفنجي رقيق يقع خلف المعدة وإلى يسارها، ويساعد على تنقية الدم من المواد الضارة، ومكافحة العدوى.



أسئلة مسابقة

العدد المزدوج ٤٠٢-٤٠٤

المحرم - صفر ١٤٣١هـ

(١) مَن هو الذي عُوتب فيه الرسول صلى الله عليه وسلم من فوق سبع سماوات؟

....

(٢) ما أوّل الشباب؟

....

(٣) ما الشنتو؟

....

الاسم: .... المدينة: .... ص.ب: .... هاتف: ....

العنوان: .... الدولة: .... الرمز البريدي: .... ناسوخ: ....

شروط المسابقة

- الإجابة عن جميع الأسئلة بشكل صحيح.
- لا تقبل إلا الإجابات المدونة على هذه القسيمة.
- إرسالها خلال ٤٥ يومًا من بداية الشهر العربي الذي صدر فيه العدد.
- أن يكتب المتسابق اسمه وعنوانه كاملاً داخل القسيمة.
- أن يكتب على الظرف (مسابقة العدد ......)

طريقة اختيار الفائزين

- تفرز جميع القسائم التي ترد من القراء.
- يتم استبعاد القسائم التي تكون ناقصة الإجابات.
- تجمع الإجابات الصحيحة، وتعمل قرعة بينها للفائز الأول، وقرعة أخرى للفائز الثاني، ثم قرعة ثالثة للفائز الثالث، وهكذا إلى الفائز الثامن.
- ترسل الجوائز إلى أصحابها فور الوصول إلى النتيجة، وتدفع بالريال السعودي أو ما يعادله بالدولار الأمريكي.

نأمل من الإخوة الذين يشاركون في المسابقة من خارج المملكة العربية السعودية كتابة أسمائهم بالحرف اللاتيني؛ لأن المصارف (البنوك) تصدر الشيكات الخارجية باللغة الإنجليزية.

مضاعفة جوائز المسابقة

استجابة لرغبات الإخوة القراء المتابعين للمسابقة تمت زيادة قيمة الجوائز، بعد أن سبق مضاعفتها من قبل.

فقد تم رفع قيمة الجائزة الأولى من ١٠٠٠ ريال إلى ١٥٠٠ريال، والجائزة الثانية من ٧٠٠ إلى ١٠٠٠ ريال، والجائزة الثالثة من ٥٠٠ إلى ٧٠٠ ريال، والجائزة الرابعة من ٤٠٠ إلى ٥٠٠ ريال، والجائزة الخامسة من ٢٥٠ ريالاً إلى ٣٥٠ ريالاً، والجائزة السادسة من ١٥٠ ريالاً إلى ٢٥٠ ريالاً. وتظل الجائزتان السابعة والثامنة على ما كانتا عليه.

ولا يخفى على القارئ المتابع أن الجوائز المستحدثة هي الرابعة والخامسة والسادسة والثامنة.

والفيصل، مع شكرها لكل الإخوة الذين يشاركونها الرأي في تطوير أبوابها، تأمل أن تكون عند حسن ظنهم دومًا، مع تمنياتنا حظًا وافرًا لجميع القراء الأعزاء.

تنويه

نفيد الإخوة المتسابقين أن المجلة ستراعي ما حدث من تأخر في مواعيد صدور الأعداد الأخيرة لظروف فنية خارجة عن الإرادة، ولهذا فقد تم مدّ فترة تلقي المشاركات في المسابقات شهرين بدلاً من ٤٥ يومًا.



قسيمة اشتراك أفراد (مخفضة)

الاسم: ....

العنوان: ....

المدينة: ....

الدولة: ....

ص.ب: .... الرمز البريدي: .... هاتف: .... ناسوخ: ....

- قيمة الاشتراك السنوي لـ (١٢ عددًا) ١٠٠ ريال سعودي أو ما يعادلها بالدولار الأمريكي خارج المملكة العربية السعودية.
- ترسل قيمة الاشتراك بشيك مصدق لأمر مجلة الفيصل الثقافية، أو يتم توريدها في حسابنا رقم (٠٠١ ـ ٠٥٥٥٠٥ ـ ٠٠٤) في البنك السعودي البريطاني، شارع العليا العام ـ الرياض.
- يشترط إرفاق القسيمة مع طلب الاشتراك.

ص.ب (٣) ـ الرياض ١١٤١١ ـ المملكة العربية السعودية ـ هاتف: ٤٦٥٢٢٥٥ / ٤٦٥٣٠٢٧ ـ ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١

بسقفه ويترك ثلاث ساعات. ومثلما جمع سالمين أفكاره ومعارفه لتطوير العود جمع متدربين من الهند وسريلانكا وتركيا ومصر أكسبهم الخبرة المعاصرة الكافية للتميّز.

وهناك آلات عود خاصة بالسيدات ذات ظهر رفيع. وإضافةً إلى ذلك طوّر سالمين العود الإلكتروني، مستمداً المعلومات من العود الكلاسيكي، والعمل مع مختلف شركات التقنية في كوريا والصين وألمانيا. ومتوسط سعر عود سالمين بين ٩٠ د. ك و٢٥٠٠ د. ك. كما يوفّر سالمين دروساً موسيقية لكل المستويات بعد تقدير مستوى الدارس؛ لوضعه على الطريق السليم الذي يناسب قدراته[٣٨].



في قمة العصر الذهبي العباسي ظهر منصور زلزل أشهر عازفي العود وأفضلهم، وبقي اسمه لامعاً مدة طويلة، وهو أستاذ لإسحاق الموصلي

عالمية العود الفلسطيني

تبدأ سلسلة الأجيال الأربعة من عائلة جبران بالفنان الشامل ديب جبران (١٨٧٦- ١٩٥١م)، المولود في ناصرة فلسطين، الذي حقّق نتائج ممتازة على مستوى شكل العود وصوته وزخارفه ومواد صناعته. أنجب ديب جبران ستة أولاد، احترف أربعة منهم صناعة العود، وكان باسم (١٩٣٢-١٩٨٨م) بداية الجيل الثاني، فبرع أيضاً في العزف، وقام بإحياء كثير من الحفلات بصحبة أخيه بديع. ويعدّ حاتم مبدي جبران العلامة الفارقة الثالثة، فقد نقل الصناعة إلى فضاءات جديدة، وتمتاز طريقته في الصناعة بالجودة العالية والدقة والصوت الجيد، ولا يزال يمارس المهنة في مدينة الناصرة بمنتهى الحرفية، ويشكّل مع ابنيه سمير وعدنان ثلاثياً عربياً عالمياً. وتتلمذ وسام الابن الأوسط على أبيه حاتم جبران، وهو يعدّ بداية الجيل الرابع، ولا تزال عائلة جبران تقدم المزيد من العطاءات[٣٩].

مبدعون عالميون

نستهلّ قائمة العازفين البارعين بفرانشيسكو سبينا، وتعدّ مجموعتاه أقدم المحفوظات، وكذلك العازف والمؤلف فرانشيسكوا داميلانو، الذي ألهمت فانتازياته الأجيال الأوربية اللاحقة، وكذلك أنطونيو روتا من بادوا، وبيرو باولو من ميلانو، ومارك أنطونيو من بولونيا[٤٠].

في عام ١٥٠٧م ظهرت في عالم الطباعة أول مجموعة موسيقية للعود في إيطاليا قام بها بتروتش مخترع الطباعة الموسيقية، كما ذاعت مقطوعات بييري فاليزا، وبرع لويس ميلانز من إسبانيا، ويودنكونتج من ألمانيا، إضافةً إلى العبقري يوهان سبستيان باخ[٤١]. مع نهاية عام ١٥٩٠م بلغ العازفون قمة الإبداع، وتزعمهم جيوفاني أنطونيو، وسيمون مولينارو، وبلغ أجر العازف ما كان يتقاضاه أمير الأسطول نفسه.

ولمقدرة محمد القصبجي الفائقة في العزف تعلّم عليه كثير من الموسيقيين. وله في صناعة العود رؤى علمية وفكرية نظرية وعلمية[٤٢]، وكانت لديه مجموعة قيمة من الأعواد، وكان يخصّص كل آلة لنوع معين من العزف؛ فعود للتقاسيم، وثانٍ للطقاطيق،

العزف على العود بجيده قلة من الفنانين



وثالث للأدوار والأغاني الطويلة، وكذلك قام بدراسات لتعديل مقاييس صناعة العود؛ وصولاً به إلى أقوى الأصوات وأرخمها[٤٣].

ويعدّ رياض السنباطي من أمهر العازفين، وقد امتاز طبقاً لسليم سحاب بـ«التقنية المطلقة لليدين، واستعمالهما بتناسق مذهل؛ وصولاً إلى التعبير من أعماق النفس البشرية، وتصوير كل حالاتها النفسية والوجدانية والفكرية»[٤٤].

كما جمع السنباطي بين أصالة المدرسة التقليدية بأشجانها وتطريبها والمدرسة الحديثة بمهاراتها وقدراتها العزفية على التصوير والتعبير[٤٦]، وكان الوحيد الذي لم يقتبس أية موسيقا أجنبية. وفي عام ١٩٧٧م أعلن الموسيقار التونسي صالح المهدي – رئيس مجمع الموسيقا العربية التابع لجامعة الدول العربية – أن السنباطي تمّ ترشيحه لجائزة اليونسكو الدولية، وكان من ضمن خمسة على مستوى العالم؛ لأنه الوحيد الذي استطاع بالموسيقا التأثير في منطقة لها تاريخ حضاري. وكان هذا شرط اليونسكو[٤٧].

وعُرف فريد الأطرش بأسلوبه المتميز بتكنيك العزف باليد اليمنى الممسكة بالريشة، فاستوحى أسلوبه من الجيتار الإسباني؛ مما أعطى العزف أبعاداً جديدة[٤٨].

كما استخدم فؤاد الظاهري العود مع الأوركسترا. وقدّمه في مؤلف أدّاه جورج ميشيل. وكتب الدكتور يوسف شوقي كونشير للعود، كما كتب عطية شرارة عام ١٩٣٨م كونشيرتو للعود والأوركسترا، أبرز فيه إمكانات العود وطابعه الصوتي بشكل يخدم الموسيقا الكلاسيكية. وأورد د. زين نصار في كتابه القيم (الموسيقا المصرية المتطورة) تحليلات لبعض كونشيرتوهات العود، وعرض شرحاً وافياً لفانتازيا العود والأوركسترا للمؤلف دكتور سيد عوض بعنوان: (ليالي جرش)[٤٩].

ومن المدرسة العراقية، أحيا جميل بشير التراث بنمط جديد

من الزخارف وبتنقلات سلسة ودقيقة على العود، ووظّف سليمان شكر القوالب الغربية بمقدرة عالية في التركيز والتقنيات، وتميّز منير بشير بالجانب الروحاني.

يصعب إحصاء العازفين والمؤلفين، لكن برز من العراق: عادل أمين، وعلي إمام، وغانم حداد، وعلي حسن، وخالد محمد علي. ومن لبنان: مارسيل خليفة، وشربل روحانة. ومن تونس: محمد زين العابدين، وظاهر يوسف، ويسري الدهبي، وأحمد القلعي. ومن المغرب: سعيد الشرايبي. ومن الأردن: صخر حتر، وسامي خوري[٥٠]. ومن سورية: محمد قدري دلال، الذي شارك في كثير من مهرجانات العود التي أقيمت في باريس (جامعة فرساي)، وليل، وسكلان، وفي جميع أنحاء أوربا، وأمريكا، وكندا، والصين، والهند، وتونس، وحازت أسطوانته (خواطر حلبية) على الجائزة العالمية لأكاديمية شارل كرو، ومن مؤلفاته: (منهج لدراسة العود) جزءان، و(المقامات وتطوّرها)، وله موسيقات تراثية رصينة[٥١].

وقد أسهم تطوّر أسلوب العزف المنفرد في العراق في تحسين نوعية الإنتاج، وازدياد أهميته التقنية والروحية؛ مما أكسب العازفين روحاً تأليفية ذات خصوصية ونمط تقني غير مسبوق، معتمدين على إرث العراق الموسيقي الذي يعود إلى سالف العصور والحضارات[٥٢].

أما سالم عبدالكريم، فقد رافق الفرقة السيمفونية الوطنية العراقية (Inso) لتقديم بعض الكونشيرتوهات، كما قدم أول كونشيرتو منفرد للعود في أنقرة بتركيا في عام ١٩٨٠م، وقدم أمسيات منفردة في ماليزيا، ولندن، وألمانيا، وسلطنة عمان، والأردن، ومصر، والإمارات، والبحرين. كما ألّف أكثر من ٢٥٠ قطعة للعود، وابتكر قالباً جديداً سمّاه (القصيد الآلي)، وكتب واحداً من أفضل المراجع لتطوير القدرات التقنية للعازفين (دراسات لآلة العود)، و(١٠٠ دراسة للمستوى الأول والمتوسط). وأسّس عدداً من الفرق، ونال براءتي اختراع عن: طريقة جديدة في تدوين الموسيقا وتطبيقها، وجهاز لتعليم المكفوفين القراءة والكتابة[٥٣].

وأسّس العازف العراقي نصير شمة أول معهد متخصّص يُعنى بتحسين العود صناعةً وعزفاً ومنهجاً وتنظيراً وتعليماً، هو (بيت العود العربي) بدار الأوبرا المصرية. كما أسّس فرقة (عيون)، واستطاع أن تكون له خطواته الراسخة التي تستند إلى منجز تراكمي ونوعي من التأليف المنفرد، وحصل على عدد من الجوائز التقديرية والتكريمية، وقدم عدداً من العروض الدولية والعالمية والمحلية[٥٣]. وقد استلهم فنّه من الحضارة القديمة وهموم وطنه: مثل: (إشراقة أمل)، و(حلم مريم)، التي كانت رسالةً دبلوماسيةً عن معاناة أطفال العراق، كما حوّل خمس قصائد من شعر محمود درويش إلى قطع موسيقية. أما معزوفته (العامرية) فتحوّلت إلى أعمال مسرحية وباليه وأفلام وثائقية وروائية ولوحات تشكيلية[٥٤]. كما قدم عدداً من المؤلفات؛ مثل: (الحياة - الحرب - السلام)، و(عود من بغداد)، و(من أجل أطفال العراق)، وغيرها، وحصل على جوائز كثيرة؛ مثل: وسام مدينة أغادير بالمغرب عام ١٩٩٢م، ودرع النضال الفلسطيني بتونس، وجائزة أفضل فنان، وميدالية الجامعات البرتغالية عام ١٩٩٦م[٥٥].

وقدّم العازف العراقي العالمي أحمد مختار برنامج (حديث العود)، عرض فيه تاريخ الآلة، وأساليب لكل المستويات، وقدّم

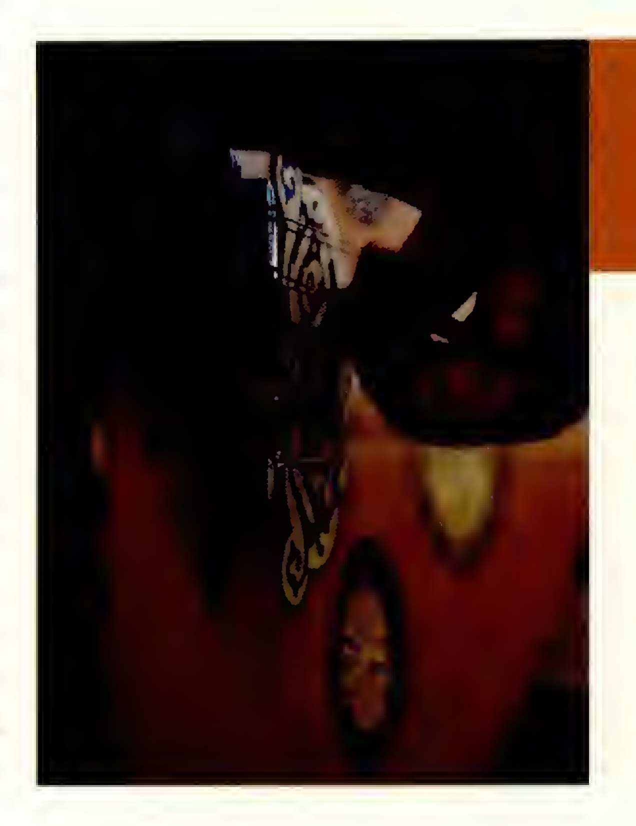
العود الجيد برنين صوتي قوي، مع خفة وزن خشبه والأضلاع التي يصنع منها تجويف صندوقه


الملاوي - المفاتيح
البنجق
الأنف
الدوسات
الرقبة - الزند
الحجاب
صدر العود
الشمسية
المشط
الرقمة
الكعب

للدارسين شرحاً لتقنيات العزف المتقدم، كما تناول أعمال أشهر الروّاد[٥٦]. وقد اختير مختار عن الشرق الأوسط في المنظمة الطبية التابعة للأمم المتحدة ضمن آخرين لإصدار أسطوانة موسيقية للتخفيف عن المتضررين من الإرهاب والحروب وعلاجهم، وله أسطوانات للعود، إضافةً إلى بحوث مهمة وأنشطة وأمسيات وطنية. كما حصل على جائزة اتحاد الموسيقيين البريطانيين عن أفضل عازف ومؤلف موسيقي، وهو يدرّس العود والنظريات العربية والإيقاع في كلية لندن. ويرى الناقد صلاح حسن أن مختار «يمتاز بإضافات كثيرة في بناء الجملة الموسيقية، وقوة الإلهام، وسعة التجربة، ولا ينساق وراء الإبهار بقدر ما ينحاز إلى القيمة الجمالية». وقدّم مختار أمسيات في كثير من العواصم الأوربية والعربية، معرّفاً بالتراث العراقي وجذور آلة العود، موضّحاً بفنه أن العراق بلد موسيقا وثقافة وحضارة، وهو يعتمد في عزفه على أسلوب المدرسة العراقية، مع خصوصيته التي يتميّز بها، واهتمامه بتفاصيل العزف، وهو يعدّ من الجيل الثالث لهذه المدرسة التي يتمسّك بتراثها[٥٧]. كما اطلّع مختار على تجارب موسيقية من أمريكا اللاتينية، وأيرلندا، وإيران، وتركيا، وسورية، ومصر، وأوربا، وهو يبحث بموسيقاه عن السلام ويدعو إليه. ويرى الناقد البريطاني مايكل جورج أن مختار «لا يزال يحافظ على تصانيف الموسيقا وقوانينها، فالعود من أصعب الآلات، لكنه يستخرج منه سحراً، حتى لحظات الصمت الفاصلة ضمن المقطوعة تصبح مؤثرةً على يديه، فتقول لنا شيئاً»[٥٨]. أما المحلّل الموسيقي بل بادلي فكتب عنه في المجلة الموسيقية العالمية Song Lines: «ليست مهمة الإيقاعات في أسطوانة (إيقاعات بغداد) زخرفية فقط؛ فالإيقاعات لديه تتميّز بالقوة والبراعة». أما روب سميث فقارن في مجلة (تايلس) بين عزفه وأساليب (البلوز والجاز)، وتحدث عن العراق وظروفه، وأن موسيقاه شاهدة على عمق الثقافة العراقية، وتوقع أن شمس العراق التي وُلدت من رحم أولى الحضارات لن يغيّبها دويّ المدافع[٥٩].

كتب مختار أكثر من ٢٥ قطعة موسيقية للعود، وموسيقا أربع مسرحيات أجنبية، وعدد من الأفلام، آخرها (البغدادي) الذي حصل على الجائزة الذهبية في مهرجان Hternational Filmmakers[٦٠]. كما صدرت له موسيقا أول مسرحية إنجليزية عربية بعنوان: (حكاية جندي)، ومسرحية (اسمي جميلة) للمخرج الجزائري عبدالناصر خلاف، وموسيقا الدراما الشعرية (بغداد سماء مفتوحة)[٦١].أما وسام جبران فمن مواليد الناصرة في جليل فلسطين، وواحد من عائلة جبران العريقة فنياً. درس في معهد أنطونيو سترا ديفاري في إيطاليا، فكان أول عربي يتخرّج فيه بامتياز. ثم حصل عام ٢٠٠٢م على جائزة أفضل صانع. وفي العزف أنجز عدة أسطوانات، أهمها (تماس) الشهيرة عربياً ودولياً[٦٢].

ويوجد عشّاق وأساتذة للعود منتشرون في كل أنحاء العالم، كما أن عازفي الجيتار وغيره من الآلات يدرسون العود ليعرفوا أسرار آلاتهم جيداً؛ مما يؤهّل العود لاستمرار حياة موسيقاه مئة عام مقبلة على الأقل، وهو ما ألهب خيال الموسيقيين الذين يتطلعون إلى إمكانية تصنيع أعواد أخرى، وإضافة مجموعة من الطبقات الصوتية التي تضيف إلى إمكاناتها من حيث الأداء. ويتحدث فيكتور سحاب - مدير البرامج في الإذاعة اللبنانية ونائب رئيس المجلس الدولي للموسيقا التابع لليونسكو - عن تجربة الموسيقار



ربيع حداد في تصنيع ٧ أحجام من الأعواد: ثلاثة خاصة بتعليم الأطفال، وأربعة أخرى للفرق، فيؤكد أن ذلك بأن تحقّق عملياً فسيفتح المجال لكتابة موسيقات عربية وعالمية على نطاق أوسع؛ مما يعدّ خطوة على طريق تطوير الموسيقا العربية. وقد اختلفت الآراء حول مدى صلاحية هذه الفكرة منهجاً للتعليم: فتصنيع أحجام مختلفة سيغيّر الطبقات الصوتية الأصلية لنكون أمام آلة جديدة بميزات صوتية تختلف تماماً عن آلة العود الأساسية. ويحذر د. فتحي الخميسي - من أكاديمية الفنون المصرية - من

الهوامش والمراجع

١- مقال عن آلة العود في الموقع الإلكتروني: http://forum.roro44.com.
٢- الموقع السابق نفسه، وموقع www rafatosman.com أيضاً.
٣- د. زين نصار، دراسات موسيقية، الهيئة المصرية العامة، ٢٠٠٦م، القاهرة، ص١١١.
٤- مقال عن الفارابي في الموقع الإلكتروني: www.yabeyrouth.com.
٥- مطلق الوتر: أي استخدام الوتر كله في الضرب عليه من دون عفق بالإصبع.
٦- د. محمود أحمد الحفني، إسحاق الموصلي، سلسلة أعلام العرب، رقم ٣٤، الدار المصرية للتأليف، القاهرة، ص١٩٧.
٧- الموسيقا العربية في العصر العباسي، مقال في الموقع الإلكتروني: www.yabeyrouth.com.
٨- أحمد الواصل، روّاد الغناء في الجزيرة العربية، كتيّب المجلة العربية، العدد ٢٨٤، يناير عام ٢٠٠٩م، الرياض، ص١١.
٩- د. محمود الحفني، إسحاق الموصلي، مرجع سابق، ص٣٤.
١٠- ابن سريج، مقال في الموقع الإلكتروني: www.ansabonline.com. وانظر أيضاً الموقعين: www.alriyadh.com، وموقع www.alargam.net.
١١- معبد، مقال في الموقع الإلكتروني: http://mosoa aljayyash.net.
١٢- الغناء في العصر العباسي، مقال في الموقع الإلكتروني: www.yabeyrouth.com.
١٣- د. محمود أحمد الحفني، إسحاق الموصلي، سلسلة أعلام العرب، رقم ٣٤، الدار المصرية للتأليف، القاهرة، ص١٣٤.
١٤- نسبة إلى الشبّوط: بتشديد الشين والباء، وهو نوع من الأسماك دقيق الذنب، عريض الوسط، لين المسّ، صغير الرأس.
١٥- مقال عن آلة العود في الموقع الإلكتروني: www.wissamjaubran.com.
١٦- د. زين نصار، دور آلة العود في تطور الموسيقا الأوربية، مجلة الحضارة فكر وإبداع، العدد ١، شتاء عام ١٩٩٩م، القاهرة، ص٩٢.
١٧- د. بول هنري لانج، الموسيقا في الحضارة الغربية، ترجمة: د. أحمد حمدي محمود، الهيئة المصرية العامة، ١٩٨٥م، القاهرة، ص٣١٢.
١٨- د. زين نصار، دراسات موسيقية، الهيئة المصرية العامة، ٢٠٠٦م، القاهرة، ص١٠٢.
١٩- مقال في الموقع الإلكتروني: www.aljeeran com.
٢٠- د. محمود الحفني، علم الآلات الموسيقية، الهيئة المصرية العامة، ١٩٧١م، القاهرة، ص٣٧.
٢١- د. سمير الجمال، تاريخ الموسيقا المصرية، الهيئة المصرية العامة، ٢٠٠٦م، القاهرة، ص٤٩.
٢٢- موقع الفنان الفلسطيني وسام جبران: www.wissamjaubran.com.
٢٣- موسوعة الموسيقا، العود، موقع: www.saramusik.org.encyc.
٢٤- تاريخ العود، مقال في الموقع الإلكتروني: www.manaabr.cm، وموقع: www.aljeeran.com أيضاً.
٢٥- د. زين نصار، دراسات موسيقية، الهيئة المصرية العامة، ٢٠٠٦م، القاهرة، ص١١٢.
٢٦- كلوديا فاركاس، العود ملك الآلات، ترجمة: دانا كمال، مجلة الكويت، العدد ٣٠٢، ديسمبر عام ٢٠٠٨م، وزارة الإعلام الكويتية، ص١٨.
٢٧- د. محمود الحفني، زرياب علي بن نافع، سلسلة أعلام العرب، رقم ٥٤، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ص٥٦.
٢٨- محمد محمود فايد، زرياب طائر غرّد في الأندلس، مجلة شؤون عربية، العدد ١٢٥، خريف عام ٢٠٠٨م، الأمانة العامة، جامعة الدول العربية، القاهرة، ص١٣٠.
٢٩- مقال في الموقع الإلكتروني: com.http://forum.roro٤٤.
٣٠- العود عبر التاريخ، مقال في موقع الفنان أحمد مختار: //http www.amukhtar.com.ar.
٣١- العود الصناعي، مقال في موقع الإلكتروني: www.arbculturaltrust.com
٣٢- د. محمود الحفني، علم الآلات الموسيقية، الهيئة المصرية العامة، ١٩٧١م، القاهرة، ص٧٨.

خطر تصغير أحجام الآلات، مؤكداً أن جسم آلة مثل العود قد يغيّر حجم صندوقها الصوتي الذي يعدّ مصدراً للصوت، وبذلك يكون أمام قياسات وأبعاد مختلفة للآلة وأوتارها، وفي هذه الحالة ستكون الحاجة ماسة إلى علم الفيزياء الصوتي؛ كي نعرف مدى التغيّر الذي حدث للآلة. كما يرى الخميسي أن تعليم الأطفال العزف لا بد أن يكون باستخدام الآلة بحجمها الطبيعي، وهذا ما حدث مع أشهر العازفين[٦٣]. وعلى الرغم من كلّ ذلك يوشك العود أن ينقرض، فهل يمكن أن نحميه بافتتاح المزيد من المعاهد المتخصّصة؟

٣٣- د. زين نصار، دراسات موسيقية، الهيئة المصرية العامة، ٢٠٠٦م، القاهرة، ص١٢٦.

٣٤- أوتار العود والإضافات، مقال في موقع الفنان أحمد مختار: .http//www.amukhtar.com.ar

٣٥- تاريخ العود عبر العصور، مقال في الموسوعة الحرة: // http .ar.wikipedia.org

٣٦- موسوعة الموسيقا، العود: .www.saramusik.org

٣٧- جمال حسين، مقال في موقع الفنان أحمد مختار: .http//www amukhtar.com

٣٨- كلوديا فاركاس الرشود، العود سالمين أشهر صناعة، ترجمة: دانا كمال، مجلة الكويت، العدد ٣٠٢، ديسمبر عام ٢٠٠٨م، وزارة الإعلام الكويتية، ص١٤.

٣٩- العود الجبراني، موقع وسام جبران: .www.wissamjaubran .com

٤٠- د. زين نصار، دراسات موسيقية، مرجع سابق، ص١٢٢.

٤١- تطوّر العود في أوربا، منتدى زرياب: .www.zeryab.orghttp

٤٢- داليا فهمي، محمد القصبجي رائد تجديد الموسيقا العربية، جريدة الفنون، العدد ٧٦، إبريل عام ٢٠٠٧م، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب، الكويت، ص١.

٤٣- د. سمحة الخولي، من حياتي مع الموسيقا، مكتبة الأسرة، سلسلة الفنون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٧م، القاهرة، ص٤٧.

٤٤- د. سليم سحاب، ثروة من الألحان، مجلة العربي، العدد ٥٨٠، مارس عام ٢٠٠٧م، وزارة الإعلام الكويتية، ص٨٦.

٤٥- مقال عن رياض السنباطي في الموقع الإلكتروني: .www .classicarabmusic.com

٤٦- د. نبيل شورة، رائد الموسيقا الكلاسيكية، مجلة العربي، العدد ٥٨٠، ص٧٣.

٤٧- محمد الطويل، موسيقار من سنباط، دار المعارف، سلسلة (كتابك)، العدد ١٥٠، عام ١٩٨٢م، القاهرة، ص٧١.

٤٨- مقال عن فريد الأطرش في الموقع الإلكتروني: .www .classicarabmusic.com

٤٩- د. زين نصار، الموسيقا المصرية المتطورة، الهيئة المصرية العامة، ١٩٩٦م، القاهرة، ص٣٦.

٥٠- موسوعة الموسيقا، موقع: .www.saramusik.org

٥١- محمد قدري دلال، خواطر حلبية على آلة العود: //:http .moc.gov.sg

٥٢- سالم عبدالكريم، مقال في الموسوعة الحرة: //:http .ar.wikipedia.org

٥٣- الموقع الإلكتروني للفنان نصير شمة: .www .vaseershamma.com

٥٤- الموسوعة الحرة، نصير شمة: .http://ar.wikipedia .org

٥٥- http//www.arabiancreativity.com/ .shamma

٥٦- انظر المزيد عن البرامج في موقع قناة المستقلة الإلكتروني: .http://almustakillahtv.com

٥٧- موقع الفنان أحمد مختار، وموقع جريدة الحياة أيضاً: //http .www.daralhayat.com

٥٨- محمد الكحط، مختار: خطوات رصينة نحو الإبداع، مقال في الموقع الإلكتروني: .www.amukhtar.com

٥٩- موقع الفنان أحمد مختار، وأيضاً: .www.rafatosman .com

٦٠- برنامج خطوات، قناة الفيحاء، إعداد وتقديم: الشاعرة ورود الموسوي، حلقة ٢٠٠٨/٨/١٢م.

٦١- الموسوعة الحرة، أحمد مختار، موسيقيون عراقيون: //:http .ar.wikipedia.org

٦٢- موقع الفنان وسام جبران الإلكتروني: .www .wissamjaubran.com، وانظر المزيد أيضاً في الموقع الإلكتروني: .www.letriojubraxn.com

٦٣- منى درويش، الكمان عزف خارج التخت العربي، ٢٠٠٥/١١/٣٠م، صفحة ثقافة وفن، موقع إسلام أونلاين: .www .islamonline.net





القاضي معاوية بن صالح

الحمصي الذي حمل رمّان الشام إلى الأندلس

فاضل السباعي

دمشق - سورية

في مطالعتنا الأندلسية نتعرّف ما نقله الأجداد من بلاد الشام إلى الأندلس من ضروب المعرفة وفنون الحضارة. ومما نقرأ الحديث عن النباتات التي حملها العرب إلى الأرض الجديدة، ابتداءً من النخيل، ومروراً بالأُترجّ (الذي نسمّيه في الشام: الكبّاد)، وكثير غيره، وانتهاءً بالرمّان[1].

أما نقل الرمان إلى الأندلس زمان عبدالرحمن الداخل، فإن له حكاية طريفة، صاحبها رجل من حمص، كان قد دخل الأندلس بُعيد الفتح، وانضمّ إلى حاشية عبدالرحمن بن معاوية - الحاكم الشامي المتغلّب على أنداده من المتطلعين إلى سدة الرياسة - فعهد إليه الأمير بمهمة ما إلى الشام. فلم يُتَح له أن ينجزها على النحو المرجوّ، ولكنه - بالمصادفة - حقّق فيها شيئاً آخر توقف عنده التاريخ لحظة، وها نحن أولاء نتوقف عنده سويعة، نتذكّر ونذكّر.

بداية، ليس لنا أن نأخذ على محمل الجد ما ورد في «معجم البلدان» - وصاحبه (ياقوت) ينتسب إلى (حماة) - حول (هواء حمص)، ومزاج أهليها؛ فإنه لمن المؤكد أن هواءها طيّب. وإن انتابته الرياح العاتية، وأن عقول أهليها على أحسن ما يُرام؛ فإن منهم القادة، والمفكّرين، وأرباب السياسة والسيادة، وحملة السيف والقلم على امتداد التاريخ، بدءاً من الإمبراطور الذي حكم روما مدةً الحمصيّ الأصل.

وفي شأن الأندلس، كان من حظّ حمص أن تمدّ القطر الذي فتحه العرب في أقصى الغرب المعروف لهم آنذاك بالجند الفاتحين. قال ابن بسّام في موسوعته (الذخيرة): «دخل جند من جنود حمص إلى الأندلس، فسكنوا إشبيلية، فسُمّيت بهم»[2].

معاوية بن صالح الحمصي الأندلسي

لم تذكر لنا المصادر التاريخية شيئاً عن نشأة الرجل الأولى بحمص، وأغفلت كذلك الإشارة إلى سنة مولده، التي نقدّر - حسب سياق الأحداث - أنها كانت في أواخر القرن الأول للهجرة في إحدى سني العقدين الأخيرين. ولما ترك حمص مرّ بمصر. فأقام بها مدة، ثم قصد إشبيلية (الحمصية)، وذلك قبل أن يدخل الأمير

عبدالرحمن بن معاوية الأندلس، عبر مدينة (المُنَكَّب) سنة ١٢٥ للهجرة (٧٤٣م). ولكن المصادر أكّدت لنا علمه بالحديث، حتى ذكرت أنه سُمِّي بـ(الراوية لحديث أهل الشام). وذلك في زمن لم يكن أهل العلم قد تهمَّموا بعد لتدوين الأحاديث النبوية. وذكر أنه، في زيارته الديار المقدسة، اجتمع مع مالك بن أنس (٩٢-١٧٩هـ)، وسأله وأخذ عنه، فكان من أوائل الأندلسيين الذين التقوا الإمام مالك في المدينة المنورة. وقالوا أيضاً: «أول من دخل الأندلس بالحديث معاوية بن صالح الحمصي»[٣].

حجته الأولى إلى الديار المقدسة

لما استتبّ الأمر لعبدالرحمن بن معاوية في الأندلس، وأُخذت له البيعة، نظر حوله، وأحبّ أن يقرّب أهل الشام أعواناً يُوكل إليهم المهامّ في شؤون الإدارة والقضاء، فكان أن ولّى معاوية بن صالح قاضياً لقرطبة فيما استحدثوه من تسمية، هي (قاضي الجماعة)، نظير ما كان يُطلق عليه في المشرق (قاضي القضاة).

في البدء، كان قاضي الجماعة في قرطبة يحيى بن يزيد اليحصبي، فأقرّه الأمير عبدالرحمن حيناً، ثم ولّى بعده أبا عمرو معاوية بن صالح الحمصي، الذي أوردت المصادر على لسان القاضي وهو يخاطب الأمير: «أوليتني القضاء... وأنا كاره!»[٤].

والظنّ عندنا أن تكليف الأمير بلديَّه الحمصي تلك المهمة الجليلة: أن يتوجّه إلى بلاد الشام ليعود بأُخَيَّة الأمير (أم الأصبغ)، التي تكبره سناً، كان قبل توليته القضاء. ولكن ما نعرفه حقاً أن الأمير بدا براً بأهله، عطوفاً عليهم جداً، مستدعياً منهم من يستطيع القدوم. وفي ذلك نُقل عنه قوله: «أعظم ما أنعم الله تعالى به عليَّ، بعد تمكُّني من هذا الأمر، القدرة على إيواء من يصل إليَّ من أقاربي، والتوسّع في الإحسان إليهم، وكُبري في أعينهم وأسماعهم ونفوسهم بما منحني الله تعالى من هذا السلطان، الذي لا منّة فيه لأحد غيره»[٥].

وقد توجّه معاوية بن صالح إلى المشرق مستجيباً، فزار الديار المقدسة، والعراق، وبلاد الشام، وحظي بالتعرّف، والمعرفة، وذاع صيته في كل قطر مرّ به. ومما يُروى: أنه «لما دخل المسجد الحرام في أيام الموسم، نظر فيه إلى حلق أهل الحديث... فقصد إلى سارية، فصلّى ركعتين، ثم صار إلى معاوضة مَن كان معه، وذكروا أشياء من الحديث، فقال معاوية بن صالح: حدّثني (أبو الزاهرية) حُدير بن كريب، عن جبير بن نفير، عن أبي الدرداء، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. وسمع بعض أهل تلك الحلق قوله، فقالوا: اتّقِ الله أيُّها الشيخ ولا تكذب؛ فليس على ظهر الأرض أحد يحدث عن أبي الزاهرية (حُدير بن كريب)، عن جبير بن نفير، عن أبي الدرداء، غير رجل لزم الأندلس يُقال له: معاوية بن صالح!. فقال لهم: أنا معاوية بن صالح. فانفضّت الحلق كلها، واجتمعوا إليه، وكتبوا عنه في ذلك الموسم علماً كثيراً»[٦].

الرمان من رُصافة هشام بالشام إلى رُصافة قرطبة

كان للأمير عبدالرحمن أخت في الشام تكبره سناً، هي (أم الأصبغ)[٧]. تقول الرواية: إن أم الأصبغ أبت الانتقال، وقالت: «كبرت سني، وأشرفت على انقضاء أجلي، ولا طاقة بي على شق البحار والقفار، وحسبي أن أعلم ما صار إليه (أخي) من نعمة الله»[٨].

حجاج ينطلقون إلى مكة



توجّه معاوية بن صالح إلى المشرق، فزار الديار المقدسة، والعراق، وبلاد الشام، وحظي بالتعرّف، والمعرفة، وذاع صيته في كل قطر مرّ به

ولكن معاوية بن صالح لم يعُدْ خائباً عند منصرفه من بلاد الشام إلى الأندلس، فقد حمّلته أم الأصبغ شيئاً من (تحف الشام). تقول الرواية: ودخل معاوية على الأمير بالهدايا الشامية، ومنها رمان (الرُّصافة): (المدينة) المنسوبة إلى جده هشام بن عبدالملك. «فعرضه عبدالرحمن على خواصّ رجاله مباهياً»[٩]، وكان فيمن حضر منهم (سفر بن عبيد الكلاعي) من جند الأردن... فأعطاه (الأمير) من ذلك الرمان جزءاً، فراقه حسنه وخبره، فسار به إلى قرية بـ(كورة ريّه)، فعالج عجمه، واحتال لغرسه وغذائه وتنقيله، حتى طلع شجراً أثمر وأينع، فنزع إلى عرقه، وأغرب في حسنه، فجاء به عما قليل إلى عبدالرحمن. فإذا هو أشبه شيء بذلك (الرمان) الرصافي، فسأله الأمير عنه، فعرّفه وجه حيلته، فاستبرع استنباطه، واستنبل همّته، وشكر صنعه، وأجزل صلته. واغترس منه بـ(مُنية الرُّصافة) وبغيرها من جناته، فانتشر نوعه، واستوسع الناس في غراسه، ولزمه النسب إليه، فصار يُعرف بـ(الرُّمان السَّفَري)»[١٠].

مطالبته تولّي القضاء بداعي الحاجة وحكم المنطق

مما يجدر ذكره أن تولية الأمير عبدالرحمن لمعاوية بن صالح قضاء الجماعة بقرطبة لم تكن مستمرة؛ فقد عزله الأمير مرةً، وولى (عمر بن شراحيل اللخمي)، ثم عزل عمر ودعا معاوية. «فكانا جميعاً يتداولان القضاء: عاماً معاوية، وعاماً عمر، وأقاما بذلك مدةً من الدهر». وقيل: إنه إذا أغفل الأمير العزل رفع القاضي «يذكّره بأمره».

لكن أمراً وقع، هو أن الأمير عبدالرحمن «ولّى عمر بن شراحيل عاماً من تلك الأعوام، فلما انقضى أقرّه على القضاء ولم يحرّكه. فكتب معاوية إلى الأمير (أن) يحرّكه في ولايته، ويُعلمه أن عام صاحبه قد انقضى. فلما قرأ الأمير كتابه أنكره واستفظعه، وأمر بإدخاله على نفسه. فلما دخل إليه، قال: هذا كتابك؟. قال: نعم. قال: يطلب مثلك ولاية القضاء وقد علمتَ ما جاء في ذلك من الأثر فيمن طلبها ووكل إلى نفسه فيها؟!. قال (معاوية): أصلح الله الأمير، أوليتني القضاء أول مرة وأنا كاره فتولّيته، فلما تولّى رأس الشهر رزقتني رزقاً واسعاً توسّعت به، ثم استمر الرزق كل شهر حتى عزلتني عند رأس العام، فاستقلبت العام الثاني - الذي كنت فيه معزولاً - بفضول من رزق العام الأول، فانقضت تلك الفضول بانقضاء العام، ثم وليتني، فعاد عليَّ الرزق، فكانت هذه حالتي إلى هذا الوقت، وقد انقضت فضولي الباقية من رزق العام الأول، وانقضى العام، فانتظرت الولاية التي يكون فيها الرزق، فأبطأت عني، فكتبت إلى الأمير مذكراً، مع أنه إن طلبتُ الولاية فقد طلبها من ظلُّه في الأرض خير من ظلّي؛ يوسف عليه السلام، قال: (اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ). فقبل الأمير قوله منه، وأمر بعزل عمر بن شراحيل وتولية معاوية»[١١].

ونرى في مطالبة القاضي جراءةً مقرونةً بمنطق خاص، ونرى في تلقّي الأمير ذلك منه حلماً وحنكةً.

حجته الثانية ولقاؤه الإمام مالك

لن ندع الحديث عن الرمان يصرفنا عن ذلك اللقاء الذي جمع القاضي الأندلسي معاوية بن صالح في حجته الثانية والإمام مالك بن أنس في المدينة المنورة، وكان بصحبته صهره (زوج ابنته) الفقيه (زياد بن عبدالرحمن بن زياد اللخمي). تقول الرواية: «فلما قدما المدينة، توجّه (الصهر) زياد إلى مالك بن أنس، فدخل عليه، وقد كان تقدّم له منه سماع في غير سفرته تلك، وأعلمه بقدوم معاوية بن صالح، فسأله أن يأتيه، فأتاه، فدخلا عليه، فسأله معاوية بن صالح عن نحو مئتي مسألة، فأجاب مالك عن جميعها. فكشف زياد بن عبدالرحمن مالكاً، وقال له: كيف رأيت معاوية بن صالح؟. فقال له مالك: ما سألني أحد قطّ مثل معاوية بن صالح. ثم كشف زياد معاويةَ عن مالك، فقال له معاوية: ما سألت أحداً مثل مالك»[١٢].

وفي هذا دلالة على حب معاوية المعرفة، وتوسُّعه فيها.

آخرته

هل تردّت حال معاوية بن صالح في أواخر أيامه، فأهمل أمره، وخمل ذكره؟

تقول الرواية: بينما كان الأمير عبدالرحمن جالساً «يوماً



على السطح (في قصره)، نظر إلى معاوية بن صالح خاطراً في (القنطرة)، فذكره، وذكر خموله وما صار إليه. فأرسل إليه. ووصله، وأعاده إلى حسن نظره. وقيل: إن (سعيد الخير) - ابن الأمير - شفع له إلى أبيه عبدالرحمن حتى رضي عنه، وأعاده إلى حسن رأيه»[١٣].

ونرى أن القاضي - من خلال تذكيره الأمير بنفسه متداولاً القضاء مع ابن شراحيل - كان نزقاً، حادّ الطبع، شديد المراس. ونذكر هنا ما رواه شاهد عيان. قال: «كنت بقرطبة، في مسجدها الجامع في المقصورة، يوم جمعة. وكان في الجماعة رجل يتنفّل ويعلن بالقرآن، إلى أن دخل معاوية بن صالح المقصورة وهو يومئذ صاحب الصلاة. فسمع إعلان الرجل بالقراءة، فمضى إليه. فأخذ بقلنسوته من رأسه. ثم رمى بها إلى ناحية من نواحي المقصورة. والناس مجتمعون، ثم قال له عن أذنه (أي: بصوت خفيض): إلى حيث قلنسوتك!»[١٤].

ولما توفي معاوية بن صالح سنة ١٧٢هـ (٧٨٨م)، شهد الأمير هشام بن الأمير عبدالرحمن جنازته في الربض، ومشى فيها[١٥].

عقب لآل معاوية بن صالح بحمص

كان لمعاوية بن صالح أخ يسمى (محمد بن صالح)، عقبه بالشام كثير. ولم يدخل أحد منهم الأندلس. وثمة رسالة كتبتها البقية من ولده بالشام إلى البقية من ولد معاوية بالأندلس. هذا نصّها:

«بسم الله الرحمن الرحيم

إلى جماعة ولد معاوية بن صالح الحضرمي، من جماعة ولد محمد بن صالح الحضرمي.

تولاكم الله بحفظه، وحاطكم بصدقه، ومدّ لكم في نعمته، وزادكم من إحسانه. إن الله - جلّ ثناؤه، وتقدّست أسماؤه - جعل بين الناس أنساباً يتعاطفون بها، ويتواصلون عليها، أوثق عراها، وأتقن قواها. وأنتم - وهب الله لكم العافية - الشّعب الأدنى، والنسب الأوّلى، يجمعكم وإيّانا الجدّ المعروف بـ«حُدير»، والقرابة بالقرابة. وإن جرى القضاء باغتراب بعض عن بعض، وشحط دار عن دار ماسة(!)، لا يوهن أسبابها تقادم الانتزاح. ولا يعفّي على واجب حقوقها بعد التزاور. وما عدمنا - أكرمكم الله - من أنفسنا تطلعاً إليكم، ولا ترك - من رزقه الله الحج منا - المساءلة عنكم في حجاج المغرب؛ طمعاً في موافاة بعضكم، وتشوُّقاً إلى استفادة علم خبركم. فلم يأذن الله أن يوافي سائلنا دالاً عليكم، ولا مخبراً عنكم، حتى وقع بظنوننا ما يقع مثله بالظنون على فروط الليالي والأيام، ومرور الشهور والأعوام، من الانقراض والنفور.

حتى أهدى الله لنا علم ما كنا نتطلّع إليه منكم، أبعدَ ما كنا طمعاً فيه وأشدَّ يأساً، مع حامل كتابنا هذا إليكم، وهو (أبو الحارث بشر بن محمد بن موسى القرشي)؛ فإنه صار إلى حمص، منصرفه من بغداد، نافذاً إليكم. فسأل عنا، بفضل ما ألزم نفسه لكم؛ إذ كنتم - على ما ذكر - أخواله، وكانت أمُّه (أم عمرو بنت محمد بن معاوية بن صالح)، وأحبّ من الانصراف إليكم بخبرنا(١). فأخبر بمكاننا، وأرشد إلينا، وأتانا منه رجل ظاهر الفضل، موسوم بالخير، معه من خبركم وعلم أمركم ما امتلأت به الصدور سروراً وحبوراً، وجعلنا لا نكشفه في مساءلتنا إيَّاه، وتقصّينا على ما عنده. إلا يكشف لنا عما يزيد النعمة علينا فيكم من الله عِظَماً في تسنية أقداركم، وتشريف مذاهبكم.

فالحمد لله رب العالمين، المانّ الكريم، الذي منّ علينا بما تناهى إلينا عنكم، وتقرّر عندنا من فضل حالكم، ونسأل الله إتمام ما حُبيتم به، ويزيدكم من كل خير، ويزيدنا بمزيدكم. وأن يعوّضكم وإيَّانا الفُرقة التي كتبها علينا، فباعد بيننا، وشتّت جمعنا، وأن يجمع بيننا في جنانه ودار رضوانه ومحلّ أوليائه؛ إنه قريب مجيب.

وكتابنا إليكم - حجب الله عنكم كل مكروه - ونحن من الله في نعمة، وكل بلائه عندنا جميل، وحالنا - في خاصّة قومنا، وكافة عترتنا وجندنا - الحال التي يحبون أن نكون بها وعليها في البسطة فيهم والتقدم عليهم. وقد شاهد بشر بن محمد من أمرنا ما لعله سيخبركم به.

فحمدٌ لله، وشكراً على إحسانه، ورغبة إليه في صالح المزيد.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته»(١٦).

الهوامش والمراجع

١- انظر: فاضل السباعي، (النخيل في التراث العربي)، ندوة النخيل الثانية بالمملكة العربية السعودية، رجب ١٤١٣هـ/ يناير ١٩٩٣م، مركز أبحاث النخيل والتمور، جامعة الملك فيصل، الأحساء، المجلد الثاني، ص٦٢١-٦٣٢، و(فلاحة الرمان في الأندلس)، مجلة (التراث العربي)، اتحاد الكتاب العرب بدمشق، العدد المزدوج ٣٧ و٣٨، عام ١٩٨٩-١٩٩٠م، ص٦٤-٨٩.

٢- معجم البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ت، ص٣١٤.

٣- الخشني، قضاء قرطبة، ص١٦.

٤- الخشني، ص٢٢.

٥- نفح الطيب، دار الكتب العلمية، بيروت، عام ١٩٩٥م، ج٤، ص٣٩.

٦- الخشني، ص١٧. وعاوضه بكذا: أعطاه إيّاه بدل ما ذهب منه، والتعبير المعاصر لهذا: حاوره، وناقشه، وجادله. وربما كان في الكلمة تحريف، وصوابها: مفاوضة (بالفاء)؛ أي: مبادلة الرأي والقول.

٧- الأصبغ من الطير: المبيضّ الذنب، ومن الخيل: المبيضّ الناصية أو أطراف الأذن.

٨- الخشني، ص١٦، ١٧.

٩- كان من بين هؤلاء الرجال من وُلد ونشأ في الأندلس بعيداً عن الشام؛ فهو لا يعرف الرمان إلا بالسماع، ومنهم من وفدوا إلى الأندلس، فأخذوا يتذكّرون، «فجعل جلساء الأمير من أهل الشام يذكرون الشام، ويتأسفون عليها». الخشني، ص١٧.

١٠- نفح الطيب، ج٢، ص١٢.

١١- الخشني، ص٢٢. ويقصد معاوية بالفضول ما كان يدّخره من مال أيام العمل ثم ينفقه أيام العزل.

١٢- الخشني، ص١٥، ١٦. والكشف عند الفيروزآبادي: الإظهار، ويبدو أن الفعل هنا يعني السؤال، والاستفسار، والتوضيح.

١٣- الخشني، ص١٨.

١٤- الخشني، ص١٨. والنافلة ما يفعله المرء مما لا يجب عليه. وكان الرجل هنا يتزيّد بأن يفعل ما ليس مطلوباً منه، مسبباً بذلك جلبةً لم يقبلها صاحب الصلاة.

١٥- الزركلي، الأعلام. والخشني، ص٢٠.

١٦- الخشني، ص٢٠، ٢١.



أدب السيناريو وسيناريو الأدب

بلقاسم بن المولدي بن بلقاسم برهومي
قفصة - تونس

ليس من العيب أن يكون الأديب المتمكّن من أدوات السرد القصصي، المتحرّر من قيد الوضوح وضبط المكان والزمان في الحاضر؛ لتيسير متابعة الأحداث، وفهم الشخصيات، واستيعاب الحوار، جاهلاً بشروط كتابة السيناريو، وإنما العيب هو تغافل كاتب السيناريو، الذي يحذق التزام السرد القصصي الوصفي، والعرض الموضوعي المتدرّج، والتقطيع المشهدي المُبرز خصائص الصورة المتحركة فيها الشخوص الظاهرة والمتحركة فيها الأحداث المتسلسلة، والامتناع الذاتي من أيّ تدخّل على شكل تعليق أو تفسير أو تخمين، عن خصائص الكتابة الأدبية الانفعالية، بل عن الكتابة الأدبية ذاتها بقصصها ورواياتها وأشعارها ونصوصها المسرحية في العالم وفي وطنه خاصةً. ولعلّنا لا نغالي إذا قلنا: إن القصّ الوصفي أو القصّ السيناريوي - إن صحّ هذا التعبير الذي يعتمد تقنية السرد السلوكية؛ أي: الدراسة الموضوعية المجرّدة للأفعال والسلوكيات، وتُدين في الأغلب اللجوء إلى الاستبطان والتهويم الشاعري المُثير للحالة النفسية - قد وجد له تطبيقاً في الأدب، وفي القصة والرواية خاصةً من خلال التقنية التي سُمّيت (عين الكاميرا)، المُركّزة في وصف دقيق لما يمكن أن تراه العين، كما نلحظ ذلك في كتابات الروائي الأمريكي جون دوس باسوس مثلاً، أو باستعمال ما يُسمّى (قصة النظر)، التي تكتفي عند كتّاب الروايات السوداء بوصف الحركات والإشارات التي يقطعها حوار قصير وحاسم؛ فالأدباء في أيامنا هذه، بل منذ النصف الثاني من القرن العشرين، أدركوا خصائص هذه الكتابة الأدبية المتأثرة بالسينما، ولم يكتفوا بالاطلاع عليها في الأدب الأمريكي من خلال قراءة أرنست همنغواي خاصة، بل صاروا يستعملونها استعمالاً واعياً بقدراتها البلاغية من حيث هي ناقدة، ولو من خلال الكلمات إلى عين القارئ المُتلهّف للفعل والحركة، وإلى الصورة المضبوطة في تكوينها وتلوينها، وإلى فهم حوار من دون رطانة أو هذر. ذلك ما قام به أدباء الطليعة في تونس منذ ستينيات القرن العشرين، وقام به غيرهم في البلاد العربية من دون أن يهتدي إلى هذا المنحى السردي السيناريوي إلا القليل من القرّاء، والنقّاد، والمخرجين السينمائيين والتلفزيونيين كذلك، فظلّ الأدباء يلقون باللائمة على أهل السينما، وظلّ السينمائيون يستنكفون زمن أهل الأدب. والحال أن كل فريق يجهل حاجات الفريق الآخر، وتطلّعاته، ونوازعه، وخصائص السرد المتفوّق في حذقها هذا أو ذاك. والحل في الحقيقة مُتيسّر، اهتدى إليه الصادقون الذين يدركون أنه لا غنى عن كل طرف من أطراف الكتابة لإنشاء سردية قصصية مشهدية فلمية حسب النظم التي أرست قواعدها التجربة العملية وحدها.

إننا لم نعد في حاجة إلى التذكير بأن لفظة (سيناريو) الإيطالية المشتقة من لفظة (سيناريوم) اللاتينية تعني منذ خمسة قرون المشهد المسرحي بالمعنى الهندسي؛ أي: التنظيم الجيد للمنظر:

ألواح خشبية، وسماء وسقيفة، وديكور، وتخطيط منظوري؛ فهو - إذاً - بالتعميم: الوصف الفضائي للمنظر، وتنظيمه السينوغرافي القائم على هندسة المنظر، وتغيّرات الديكور والمعدات؛ أي: تغيّرات المشاهد أو اللوحات حسب مقتضيات التجول المكاني أو الزماني. ومن ثَمّ الانتقال من فعل إلى فعل. لذلك فضّل السينمائيون منذ بداية القرن العشرين هذه اللفظة على لفظة (دفتر) أو (ملخّص) أو (قصة)؛ لأن مفهومها أقرب إلى ما يريدونه من دلالة على قصة وصفية معدّة للتصوير حسب مراحل تقطيعها، وبخصائص ما تدقّقه من مواصفات المشاهد والأفعال والأدوات، وكذلك الشخصيات المتحركة في الفضاء المشهدي، وما تفرزه من كلمات حوار ينبثق من الحالة فيدلّ عليها ولا يخلقها مثلما هو الشأن في المسرح أو في الشعر أو في الأدب عامةً.

ولسنا بحاجة من ناحية أخرى إلى ذكر مراحل كتابة السيناريو من الفكرة إلى الملفوظ: أي: إيصال الفكرة بشكل كلامي يقصّ فعلاً مكتفياً بذاته إلى الموضوع الذي هو نصّ سردي قصير يهيئ كتابة السيناريو إلى الإنتاج السارد الذي يحتفظ فيه المؤلف بالجوهري مما لديه ويرغب في سرده. ويختار المراحل ذات الأهمية الكبرى بالنسبة إلى إدراك المشاهد وانفعاله. والملخص؛ أي: الوثيقة التي لا تتجاوز ثلاث أو أربع صفحات، تقدم نظرة ملخصة للقصة تسمح بالحكم على حالة انتهائها، وعلى طرافتها وأصالتها وميزتها السردية، إلى المعالجة التي تظهر اللحظات المهمة للحبكة، وتقدّمها السردي، وتمفصلاتها، والبنية الدرامية، ووصف الشخصيات وبواعثها، والحوارات التي تنطوي على أهم التعبيرات، كأننا نريد أن نؤكّد أمرين:

أولهما: أن السرد الدرامي يتركز في موضوع الاختراع المختزل: أي: الذي يرغمه زمن العرض على الشكل المختصر والتعبير المشهدي الحركي المكثّف، ويسعى إلى إحداث انفعال مهيمن من خلال تعبيره عن نفسه بأداء محدد. وهذا التكثيف - كما يقول إيتيان فوزولييه E. Fuzellier - «لازم لشكل السرد القصصي الفلمي؛ حتى يفضي إلى البحث عن الأثر، ويُعطي أهمية رئيسة للحركة والإيقاع، ويفرض خياراً للحظات الدالة على الفعل، ورابطة حسّاسة فيما بينها».

عندئذٍ نكون قد استوعبنا مقولة أرسطو القديمة: «قبل كل شيء، نحن إزاء تمثيل أفعال البشر يفعلون»، وهي المقولة التي لخّصها راؤول والتر في صيحته: «فعل.. فعل.. فعل».

وثانيهما: أن مثل هذا التدقيق في إنشاء السرد القصصي الفلمي أو السيناريوي، الذي قد يطول في المدى الزمني، يحتاج إلى كاتب أصلي لا محالة، لكن لا محيد عن اللجوء إلى تداخل أطراف أقوى - قارئةً أو كاتبةً - قد تدفع بالفلم الذي «يساوي قبل كل شيء ما تساويه القصة التي يرويها» - كما يقول هوارد هاوكس - إلى أن يُعيد كتابته أكثر من مرة أكثر من كاتب عارف محترف في إطار تعاون مبنيّ على قناعة وانسجام بين جميع الذين يريدون حقاً النهوض بأدب السيناريو وسيناريو الأدب إذا كانت القصة الأصل مأخوذةً من كتاب يهتدي إليه المنتجون والمخرجون.

